



من الشرق والغرب



البحث في الإسلام

بقلم

مراد محمد علي



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راتب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا



من الشرق والغرب



التعاونية في الإسلام

تأليف : مراد محمد علي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

« الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » .

« النفس بخير ما تعاونوا » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« مثل المسلمين فى توادهم وتراحهم كمثل الجسد اذا

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

دعوة قوية الى « التعاون » نادى بها الاسلام منذ

نزوله .

ما تفاصيل هذه الدعوة ؟ .

والى اى حد تقبلها وطبقها المجتمع الاسلامى الاول ،

مجتمع صدر الاسلام ؟ .

ثم ما علاقة المجتمع الجديد - الاشتراكى انديمقراطى

التعاونى - الذى نسمى اليه بهذا المجتمع الذى عملت الدعوة

الاسلامية على ايجلده ثم بنقله وتدعيبه منذ شرونها ؟ .

هذه الدعوة الثورية للتمعنون الاشتراكي الديمقراطي التي
حمل مشعلها « جمال عبد الناصر » ، هل هي مستوردة أو
نابعة من تقاليدنا ومعتقداتنا ، خيلة أو أصيلة ، شرقية هي
لو غربية ؟ .

استللة دارت في ذهني ، ولعلها دارت في أذهان الكثيرين
غيري وكلها دفعتني الى تقديم هذا البحث ، محاولا به القاء
ضوء على كل من الدعوة الاسلامية الخالصة وقت شرونها ،
والحركة التملونية ببعثتها واهدافها الاصيلة التي انتشرت في
اتحاء العالم ، لترى اى قدر من الاتفاق أو التناقض يحكم
العلاقة بينهما ؟ .

والله الموفق .



تمهيد

التعاون: أهدافه - مبادئه
تعريفه - تاريخه

أولا - تعريف التعاون :

يفهم من المعنى اللغوي للتعاون انه عملية لا يمكن ان تتم عن طريق شخص واحد ، بل لابد من اشتراك اثنين أو أكثر فيها لكي يمكن ان نتصور وجود صورة من صور التعاون .

والمفهوم أيضا من لفظ « التعاون » انه يهدف الى تحقيق الخير والعمل لمصلحة المجوع ، وان كل من بعض البلّثين يعتبرون التعاون على الشر صورة من صور .

كذلك التعاون الذي يهدف الى استغلال مجهود فرد أو جماعة لمصلحة فرد أو جماعة أخرى قد يعتبر أيضا صورة من صور .

والتعاون لا تتصور معه السلبية ، وانما هو مقترن بالإيجابية ، فلا بد ان يقوم التعاون ببذل شيء ما ، سواء أكلن هذا الشيء جهدا أم مالا ، أو غير ذلك .

وعلى هذا الأسس يمكن أن نورد آراء بعض المفسرين في تعريف التعاون :

« بالتعاون هو اشتراك شخصين أو أكثر في أداء عمل ما بحيث يعمل الفرد لمصلحة الجماعة كما تعمل الجماعة لمصلحة الفرد ، وينفذ الواحد من عمل الجماعة ، كما تنفذ الجماعة من عمل الواحد » .

« والتعاون اتحاد موارد كل فرد وقدرته مع موارد وقدرة آخرين وتنسيقها بحيث تكون مجهودا واحدا مشتركا بغية الوصول الى نتائج يسعى إليها مجموعهم »

« والتعاون نظام اقتصادي يستهدف رفع المستوى المادي للأخزين به من الأفراد ، وهو نظام اجتماعي يقوم على نشر العلم بين المتعاونين من جهة ، وبينهم وبين المجتمع من

جهة أخرى ، الى ان يصبح التأخى وحب التضحية وانكار الذات والاعتماد على النفس عادة وطبيعة وخلقاً بين سائر افراد المجتمع .

ثانياً - تاريخ التعاون :

عندما نتناول هنا تاريخ التعاون ، فلتنا سوف نقصر حديثنا على تاريخ التعاون المنظم ونهضته الحديثة ، لا التعاون الفطرى الذى نشأ منذ نشأة الإنسان ، كما أننا فى حديثنا عن هذا التاريخ انما نحفظ بوجهة نظر خاصة به الى آخر هذا البحث .

ويعتبر مؤرخو التعاون فى انجلترا مود الحركة التعاونية الاخضرى ، لما ظهر فيها من دعاة نادوا باول مبادئ وضعت للتعاون وطبقوها ، ونجحوا فيها ، حتى نقلت عنهم دول كثيرة هذه المبادئ وطبقتها بما يتلاءم مع ظروفها وبيئتها.

ويرجع الفضل فى ظهور الحركة التعاونية وانتشارها بهذه البلاد الى الانقلاب الصناعى الذى حدث ابتداء من النصف الاخير من القرن الثامن عشر .

فقد ادى هذا الانقلاب الى زيادة الهوة التى تفصل بين الطبقة الغنية ، وهى اقلية - والطبقة الفقيرة - وهى اكثرية - واصبحت هذه الطبقة الاخيرة امام مأزق حرج كان عليها ان تستسلم له فتزداد بؤساً على بؤس ، او تتحد لمواجهة والتغلب عليه .

لقد ظل النظام الصناعى المسكد فى اوربا حتى منتصف القرن الثامن عشر يعتمد على شخص العامل ومهارته ، وكان هذا يجعل للعامل مركزاً قوياً لدى صاحب العمل ويقرب الفرق بينه وبين هذا الاخير ، فمثلاً عن ان الفرصة كانت مسوحة امام اى عامل لكى يتحول الى صاحب عمل .

ومع بداية النصف الاخير من القرن الثامن عشر بدأ سيل من المخترعات يبدد هدوء هذا العالم ، وكان كل اختراع جديد ينقص من قيمة العامل ، ويزيد من سيطرة صاحب العمل .

ثم كفت انتجلترا صاحبة المسبق فى ظهور الاختراعات بهذه الفترة .

فقد قام جيمس وات باكتشاف قوة البخار ، ففتح به بابا واسعا أمام الصناعة لى تتطور من الاعتماد على أيدى العمال الى الاعتماد على شيء أقوى وأوفر ، ثم جاء ستيفنسن ليكمل الحلقة باختراع القاطرة البخارية التى سهلت تصريف كميات البضائع الضخمة التى تنتجها الآلات ، واتلحت الفرصة لانتاج أكثر .

وقد تركزت الصورة الأولى لهذا الانقلاب فى مقاطعة لانكشير حيث تنتشر صناعة النسيج ، فازدادت الفوارق اتساعا بين العامل وصاحب العمل ، وازداد بؤس الأول فى حين ازداد ثراء الآخر .

واخذ هذا الانقلاب الصناعى ينتشر فى مختلف البلدان ويمتد الى نواحي النشاط الزراعى أيضا .

وأصبح فى حكم المستحيل أن ينتقل العامل من طبقته الى طبقة صاحب العمل لأن رأس المال الضخم الذى يتطلبه هذا الانتقال يقف حائلا دون ذلك .

ويقدر ما ازدادت سيطرة صاحب العمل واستبداده ازداد خضوع العامل وخنوعه ، فكان أصحاب الأعمال يقومون باختيار الكثير من عمالهم من بين النساء والأطفال لرخص أجورهم ، ولم يربطوا أنفسهم بقواعد معينة فيما يخص بساعات العمل أو أيام الراحة أو المحفظة على صحة عمالهم .

من ذلك الجو المغمم بالبؤس والشقاء انبثقت زعلمات شعبية آمنت أن التملون هو الحل الأمثل لمواجهة هذا الموقف والغلب عليه ، فدمعت الى التملون .

وظهر (روبرت أوين) الملقب بأبى التملون فنادى بحق العمال فى أن تتوافر لهم الراحة والرفاهية والتعليم والصحة ، وقد بدأ بنفسه فى تطبيقه لدعوته ، لأنه كان صاحب أحد مصانع الغزل باسكتلندا .

ونجحت دعوة (روبرت أوين) وزادت أرباحه زيادة دفعتة الى وضع نظم علم يمنح العامل حقه كقنسلن ، ودعا

الحكومة الى تبنيه وتطبيقه ثم قام بانشاء جمعيات زراعية وصناعية تكون مصادر الثروة فيها ملكا شاملا بين افرادها وتقوم هذه الجمعيات بتوفير جميع حاجات هؤلاء الافراد في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وبعد وفاة (اوين) خلفته مجموعة من تلاميذه الذين واصلوا تطبيق مبادئه ، بانشاء عدد كبير من الجمعيات التي وضع « اوين » نظلمها ، ولم يكن نجاح مثل هذه الجمعيات سهلا ، فقد كان يتطلب صبرا ومثابرة لاعداد القاعدة الشعبية التي يمكن ان يرتكز عليها الدعم التعاوني .

وهكذا ثلاث هذه الجمعيات بوفاء الداعين لانشائها ، ولكنها قبل ان تتلاشي وضعت حجرا صلبا في بناء القاعدة التعاونية ، ورغم تلاشي هذه الجمعيات فان جذوة الحركة بقيت مشتعلة تنتظر الوعي الذي يتفخ فيها لتضيء من جديد .

في سنة ١٨٤٤ اجتمع عدد من عمال النسيج الباسيين في قرية صغيرة بمقشستر ، اجتمعوا ليعاودوا حمل مشعل الحركة التعاونية ، الذي لم ينطفئ بعد ذلك ، وانما انتشر نوره حتى شمل كل الارحاء .

وظهر في دول عدة مصلحون آمنوا بالتعاون وسيلة لاصلاح حال شعوبهم فاختفوا من مبادئه اساسا يقيمون عليه البنين الذي يتلام مع ظروف بلادهم ومقتضيات شعوبهم .

فترعت المانيا حركة التعاون في الاقراض ، وعندها اخذت بلاد كثيرة مثل المجر والنمسا . وقد دعا الى هذا النظام اثنان من زعماء الاصلاح الالمان هما (فردريك رابنباين) و (شولز ديلتش) وقد كانت بلادها تحتاج مفعلا الى هذا النوع من التعاون الذي اثبت تطبيقه انه كان خير علاج لمشاكل شعوبها ، ولكي نبين الى اى حد من النجاح وصل هذا النظم عند تطبيقه في المانيا ، نسوق مقرة قصيرة من مؤلف الماني عن (التعاون في داخل البلاد وخارجها) للبروفيسور فاي ، وقد شجعنا على ايراد هذه المقرة انها لا تبعد بنا كثيرا عن الحالة التي كان بها ريفنا والحالة التي يمر بها الينا الآن .

يقول البرونيسور فاي :

« على بعد ساعة من نويير التي على نهر الراين قرية « انهلوسن » الصغيرة التقية على هضبة في مسنح جبال فسترغالد ، وارضى هذه المنطقة ليست خصبة ، واهلها ملاك صغار ، لا يملك بعضهم من الارض اكثر مما يكفى مرعى ثور او بقرة ، حتى ان من يملك منهم عشرة ائنة يعدونه ثريا ، وكانت هذه القرية قبل سنة ١٨٦٢ في حالة سيئة ، اذ كانت مبانها مهدمة وانيتها مرتبكة النظم ، واذا اطلت السماء تراكمت في طرقاتها الاوحل ، واينما نظرت لاتجد الا كومات سباح ، كما ان الاهالى كانوا في حالة يرثى لها مليا وخلقيا ، فقد تجاوز تعاملى المسكرات فيها كل حد ، وانتشرت الدعارة ، وعمت المشاجرات ، وصار كل ما فيها من بيوت او مئسبة ملك للتجار اليهود الا قليلا .

اما الآلات الزراعية فكانت قليلة وغير صالحة للاستعمال ، واما الحقول فلم تكن مهيأة للزراعة كما ينبغي ، فلا تنتج الا القليل . وقد بلغ البؤس عند القرويين حدا صاروا معه عبيدا للتجار وارقاء المرابين .

اما اليوم فقد تغيرت حال « انهلوسن » واصبحت قرية نظيفة ، تلوح على اهلها سيما الدعة ، قبيوتهم مهندمة ، وانفية ضياعها منتظمة حتى في ايام العمل ، وكومات السباح في الحقول معتنى بها ، وملابس السكان نظيفة على بسلطتها واخلاقتهم محبودة ، وقد تحسنت حالتهم المالية فلمصبحوا يملكون المواشي التي في حظائرهم ، وليس عليهم ديون للتجار ولا للمرابين . وكل الزراع تقريبا يستعملون الآلات الحديثة ، وقد علت قبة مزارعهم وفلحوا اراضيهم بعناية ونظم فانتجت المحصولات الكثيرة .

وكل هذا التغيير الذي يعجز ان يوفيه حقه الوصف او الاحصاء انما نتج عن انشاء مصرف تعاونى من مصرف راينفازن في هذه الجهة .

وفى فرنسا انتضت الظروف ان تأخذ الحركة التعاونية بها شكلا تعاونيا صناعيا للعمال ، حيث كانت هذه الطائفة

التي تمثل عددا كبيرا من شعبيها تلاقى من العنف والارهاب
ملا يمكن لطاقة بشرية ان تتحمله .

فظهر في هذه البلاد مصلحون اجتماعيون أمثال
(سان سيمون) و (فرانسوا فوريير) و (فيليب بوشيز) و
(لويس بلان) الذين تزعموا الحركة التعاونية الصناعية
بين العمال في فرنسا ، ومنها انتشرت الى كثير من انحاء
العالم .

لما ايطاليا فقد اخفت نظلمها عن المقتيا وطبقته بعد
ادخل بعض التحديل عليه ، اذ ان الظروف كانت متشابهة
الى حد بعيد في كلا البلدين ، وقد تزعم النهضة التعاونية
في ايطاليا (لويجي لوتسافي) الذي كان له اثر — سوف
نذكره — في تاريخ التعاون في بلادنا .

وتاريخ التعاون في مصر يرجع الى سنة ١٩٠٨ حين ظهر
الرائد التعاوني (عمر لطفي) مناديا بحق الفلاح في الحياة
للحرة الكريمة ، ومؤمنا بأنه لا يوجد سوى التعاون وسيلة لتوفير
هذه الحياة له .

وقد تليذ (عمر لطفي) على (لويجي لوتسافي) زعيم
التعاون في ايطاليا ، وعاد ليثير بالتعاون ويدعو له في
الامساط الرسمية والشعبية ، وقام فعلا بتأسيس بعض
الجمعيات التعاونية والاشراف عليها .

ولكن الموت لم يهمل (عمر لطفي)طويلا حتى يتم رسالته،
فما لبث ان توفي في ٤ من نوفمبر سنة ١٩١١ بعد أن وضع
بذرة التعاون التي قرر لها أن تنمو وتزدهر في عهد ثورتنا
الحاضرة .

ثالثا — اهداف التعاون :

قد تختلف الجمعيات والمنشآت التعاونية اختلافا بينا ،
سواء في تكوينها أو أغراضها ، ولكنها جميعا تشترك في
ايمانها بأهداف التعاون ، والعمل على تطبيقها في الجلب
الذي يتنوله نسلها .

فالتعاون بوصف علم يهدف الى المحافظة على دخول

الأفراد وزيلاتها ، وهو فى سبيل ذلك يحول الغاء الوسيط المستغل فى كل فرع من فروع التجارة ليوفر ربحه للمنتفعين ، كما يحاول أن يحصل على أجود السلع بإرخس الأمان لتوصيلها إلى المستهلك كما يشجع التعامل على جعل معاملته بال نقد حتى لا يتورط فى ديون تزيد عن طاقته كما أنه يرد فى النهاية الأرباح التى حصل عليها إلى المتعاملين فى صورة عقد .

ومن الناحية الاجتماعية يهدف التعاون إلى اقلية نظم من التكافل الاجتماعى ، فيحض على أن يساعد القادر غير القادر ، كما تنص نظمه على تخصيص جزء من الأرباح للمعونة الاجتماعية ، يضاف إلى ذلك أن تكوين الجمعية نفسه ونظم العمل فيها يشملان من صور الديمقراطية ليكفل قيلم مجتمع قويم متمسك .

وعند ما يتناول التعاون الناحية الثقافية فإنه يجعل منها هدفاً ومبدءاً فى الوقت نفسه ، فالمتعاون يرى أن التعليم هو خير الوسائل لنشر دعوته والحفاظة عليها وانماؤها .

رابعا — مبادئ التعاون :

استن التعاونيون الأوائل مبادئ وأسس تبلورت بمرور الأيام حتى أصبحت هذه المبادئ للتعاون والتعاونيين تقاليد عالية هى لهم بمنزلة العقيدة الراسخة .

وعند ما أسس رواد روتشديل جمعيتهم التعاونية الأولى عام ١٨٤٤ لم يضعوا قواعد معينة لتكون مبادئ للتعاون ، بل ساروا فى طريق تعاونى قويم مسترشدين بيمان عميق بأن التعاون هو الوسيلة المثلى لحل مشكلهم .

ومن هذا الطريق الذى ساروا فيه استنبط من لحقهم من التعاونيين هذه المبادئ التى يبنى عليها التعاون الآن .

وقد أدى ذلك إلى اختلاف كبير فى الاتفاق على تقسيم موحد لمبادئ التعاون ، وإن كانت جميع الآراء التى تناولت هذا الموضوع قد اتفقت فى مضمونها ومرماها .

وسنحاول هنا أن نعرض أهم وجهات النظر التى تناولت وضع هذه المبادئ وتنظيمها .

فهناك من يقسم هذه المبادئ الى :

- ١ - باب العضوية المفتوح .
- ٢ - الديمقراطية في الادارة .
- ٣ - العدالة .
- ٤ - الاقتصاد والتوفير .
- ٥ - العلانية .
- ٦ - الوحدة .
- ٧ - الحرية .

وفي تقسيم وضعه التعلوني (وارياس) يرى أن هذه المبادئ تنحصر فيما يلي :

- ١ - مبدأ الادارة الديمقراطية .
 - ٢ - مبدأ الفلدة المحدودة على رأس المال .
 - ٣ - مبدأ توزيع العائد على الاعضاء بنسبة لمعاملاتهم -
- كما يرى البعض اضافة مبدأ رابع الى هذه المبادئ هو مبدأ : « باب العضوية المفتوح » .

ويرى آخرون اجماع بعض هذه المبادئ او اعتبار بعضها سياسة وليس مبدأ ، وثمة رأى آخر يرى ان أهم مبادئ التعلون هي :

- ١ - الفرد للجموع والمجموع للفرد .
 - ٢ - مبدأ الاعتماد على النفس .
 - ٣ - مبدأ شيوع الخصة .
- ويقول (اندروز) التعلوني السويدي : ان مبادئ التعلون سبعة هي :
- ١ - يمول الاعضاء جميعتهم بالقدر اللازم من المال . ويتنفسون عنه فلدة محدودة .
 - ٢ - لاتتمثل الجمعيات الا في التقى التنظيف الجيد من السلع .

٣ - تلتزم الجمعيات في اعمالها الامانة التامة في ميزان ما تبيعه ، وفي المقتبىس والمكليل .

٤ - توزع الجمعيات بضائعها بسعر السوق المحلية وتتجنب البيع بالاجل ولا تشتري الا بالنقد .

٥ - يوزع جزء من الفلض السنوى على الاعضاء يكون بقدر ما اشتراه كل عضو من الجمعية .

٦ - لكل فرد صوت واحد فى ادارة الجمعية ، وللنساء ما للرجال من كليل الحقوق فى التصويت وغيره .

٧ - تخصص نسبة مئوية من الفلض السنوى لنشر العلم وللأغراض الثقافية الأخرى .

وواضح ان هذا التقسيم قد ائتمل على ميسلت يمكن ان تتم داخل نطاق المبادئ ، ولكن لا يمكن اعتبار ما جاء به مبادئ .

وفى سنة ١٩٢٠ أحال مؤتمر فينا التعاونى هذا الموضوع الى لجنة خاصة لدراسته ، وبعد بحث واستقصاء تقول الحركات التعاونية فى العالم ، وضعت اللجنة تقريراً قدمته الى المؤتمر الرابع عشر للحلف التعاونى الدولى المنعقد بلندن سنة ١٩٢٤ وقد قسم هذا التقرير المبادئ التعاونية الى :

١ - باب العضوية المفتوح .

٢ - للسيطرة الديمقراطية على أعمال الجمعية .

٣ - رد العائد الى الاعضاء بنسبة مبيعاتهم .

٤ - الفائدة على رأس المال المسهم به .

٥ - الحياد السياسى والدينى .

٦ - التعامل بالنقد .

٧ - التعليم التعاونى .

وبعد ذلك انعقدت هيئة المؤتمر لانتقشة التقرير وما تلقته من ملاحظات بشأنه ، ومن بينها مذكرة من الوفد البريطانى بالمؤتمر يقترح فيها تعديلاً للتقسيم الذى وضعتة اللجنة بحيث يصير كما يلى :

١ - باب العضوية المفتوح .

٢ - السيطرة الديمقراطية .

٣ - إلغاء الربح عن طريق رد العائد وتحديد الفائدة على رأس المال المسهم به .

وفي سنة ١٩٣٧ عقد مؤتمر بليريس التعاوني حيث تم
تقسيم المبادئ فيه الى قسمين رئيسيين :

القسم الاول ويشتمل على المبادئ الاساسية :

- ١ - باب العضوية المفتوح .
- ٢ - السيطرة الديمقراطية .
- ٣ - رد المائد بنسبة المشتري .
- ٤ - النفقة المحدودة على رأس المال .

والقسم الآخر ويشتمل على المبادئ الفرعية :

- ١ - الحياض السيلسي والديني .
- ٢ - البيع نقداً .
- ٣ - نشر العلم .

ولم لهذا التقسيم الاخير هو اكثرها استقرارا حتى
ولقنا الحاضر .

وفي بحثنا هذا سنحاول ان نجمع كل وجهات النظر
التي تناولت هذا الموضوع في تقسيم يشملها كلها لنجعله
اساسا لبحثنا على الوجه الآتي :

- ١ - مبدأ باب العضوية المفتوح .
- ٢ - الادارة الديمقراطية .
- ٣ - نشر العلم .
- ٤ - البيع بالنقد .
- ٥ - الحرية .
- ٦ - المائد على المعاملات .
- ٧ - الاقتصاد والتوفير .
- ٨ - مبدأ العائية .
- ٩ - الوحدة .
- ١٠ - العدالة .

باب العضوة المفتوح

« لكم دينكم ولي دين »

قرآن كريم

(ان اول مبادئ الجمعية الا تستعلم حين
تبولها أى عضو من اعضاءها عن أى دين يعتقد؟
وما اتجاهه السياسي ؟) .

ابراهيم هويرد

رئيس مجلس

ادارة الجمعية التعلونية الاولى

ومبدأ باب العضوية المفتوح يعتبر من أهم مبادئ الحركة التعاونية .

ومؤدى هذا المبدأ أن الجمعية أو المنشأة التعاونية تقبل فى عضويتها كل من يرغب الانضمام لتلك العضوية ، بصرف النظر عن جنسيته ، أو لونه ، أو عقيدته ، أو عمله ، أو عمره ، أى أن بابها مفتوح للدخول . كما أن فتح باب الجمعية لمن يرغب فى الخروج يؤلف الشطر الآخر من هذا المبدأ .

وقد اعتبر التعاونيون هذا المبدأ معبرا عن الجانب الإنساني فى الحركة التعاونية ، فقد عقد بلندن فيما قبل (الروتشد اليون) مؤتمر : فى عام ١٨٣٢ وكان من بين قرارات هذا المؤتمر التى أعلنت فى ذلك الوقت :

« أن التعاونيين تشملهم جميعتهم كسائمين وعاملين معا ، فإذا كانوا منتبين الى حزب أو احزاب مختلفة أو كانوا من ديانات متباينة فغير مسموح فى هذه الجمعيات بأن تحقق شخصيتهم أو أن تعلمهم على أسس حزبيتهم ، أو دياناتهم أو نزعاتهم السياسية ، حتى لو كانوا مسلمين لشخصية كروبرت أوين أو أى رجل آخر .

هكذا ولد هذا المبدأ مبكرا فى الحركة التعاونية ، ثم جاءت الجمعية الأولى لتبناه وتدعمه ، وفى عام ١٨٦١ أعلن أبراهام هولارد رئيس مجلس إدارة تلك الجمعية فى بيان له وزع على الصحف الإنجليزية فى ذلك الوقت أن :

« أول مبادئ الجمعية ألا تستعلم عند قبولها أى عضو من أعضائها : أى دين يعتنق ؟ وما اتجاهه السياسى ؟ وهذا مبدأ اتبعته الجمعية وتتبعه معها جميع الجمعيات القائمة الآن .

« أما المبدأ الثانى فهو أن الفروق السياسية والدينية للأعضاء لا تلقى أى اعتبار ولا تدخل فى حسابنا ، والا ابتنع علينا وتعنر على

مجالس ادارتنا اداء اى نشاط قد يؤول لمصلحة اى فرد ينتمى لاي مذهب
او عقيدة » .

ويقول التعاونى الانجليزى (ميرسر) :

ان الحركة التى تتكون من الناس جميعا وعلى مبدأ من عهومية
المشاركة بقطع النظر عن الجنس والعقيدة حركة علة فى اغراضها :
علة فى اهدافها ، علة فى روحها الشاملة التى تحيط بينى الانسان
فترفع من قدرهم وتجعل الحياة التضامنية خليفة بان نحيها على اساس
من الثقة المتبادلة ، وتكفؤ الفرص .

واذا حولنا تطبيق هذا المبدأ من الوجهة العملية فلننا نجد ان
الظروف لم تتناول مبداء من مبادئ التعاون بالتعديل كما تناولت هذا
المبدأ .

فقد انترم الرواد الاوائل هذا المبدأ فى جميعاتهم ، التزموه بأمانة
ودقة ، وفتحوا ابواب العضوية لكل من يرغب الانضمام الى الجمعية او
الاتصال عنها ، ولم يميزوا فى ذلك بين عضو وآخر مهما كانت الاسباب .
وقد دعا ذلك الكثير من المفكرين الى ان يلتبوا الحركة التعاونية النافذة
فى تلك الوقت (بحركة الجمعيات المحلية) .

ثم اخذت الحركة فى الانتشار بعد ذلك ، وفى كل خطوة تخطوها
وفى كل علم يمر عليها كانت تصادفها ظروف جديدة تدفع المبدأ الى
التطور فى اشكال جديدة تتلاءم مع تلك الظروف .

فانما تناولنا الشطر الاول من هذا المبدأ وهو الخاص بحرية الدخول،
وجدنا من ينادى من بين التعاونيين باشتراط قواعد خلقية او معنوية معينة
لا بد ان تتوافر فبين يرغب الانضمام الى عضوية الجمعية ، ودافعهم الى
ذلك هو الرغبة فى المحافظة على مستوى الحركة التعاونية وحيلتها
من كل حيل يرغب فى هدمها بواسطة الانتساب اليها .

كما نجد انه جاء وقت على الجمعيات حاولت فيه التكميل فى
العضوية حتى لا يتضخم راس مالها ، ولا تجد المجال المناسب لاستثماره ،
ولتحقيق هذا الغرض وضعت تلك الجمعيات شروطا خاصة للانضمام
اليها ، كمن يكون العضو بلغا من الرشد ، او ان تقصر العضوية على
ريالت البيوت او اربابها على حسب الفئة التى تعملها الجمعية .

وفى الوقت الحاضر نرى ان اغلب الجمعيات التعاونية تلتزم هذا
المبدأ داخل حدود معينة : فهناك جمعيات مهنية يقوم بتأسيسها جماعة من

أبناء مهنة واحدة لمواجهة الصعوبات التي قد تعترض عملهم في هذه المهنة ، ومثل هذه الجمعية تلتزم تطبيق مبدأ فتح باب العضوية في حدود أبناء المهنة التي أنشئت من أجلها . كما يحدث مثلا عند انشاء جمعية تعاونية لصيد الأسماك .

وهناك جمعيات تنشأ على أساس مزاولة نوع معين من النشاط ، كجمعية التأهين على الملائية ، فهذه لا تقبل في عضويتها شخصا ليس في حيازته مواش .

وثمة جمعيات تعاونية تقوم لخدمة منطقة معينة كالجمعية التي تقوم في إحدى القرى ، فإن مثل هذه الجمعية قد تفتح باب عضويتها أمام كل سكان القرية التي تعمل بها ثم تطلق هذا الباب أمام من عداهم .

ومن ناحية أخرى نجد أن بعض الجمعيات تضع شروطا أخرى لدخولها ، كأن تفرض رسما معيناً للدخول مضاعفا إلى قيمة السهم ، أو أن تشترط الحصول على تركية عضو أو أكثر من أعضائها للمساهمة الجديدة .

أما الأسطر الآخر من مبدأ باب العضوية المفتوح وهو الخاص بحرية الخروج من عضوية الجمعية فقد شملته الظروف بالتغيير أيضا .

فبعد أن كانت الجمعيات التعاونية في عهدها الأول تسمح للعضو بالاستقالة مع الحصول على رأس ماله في أي وقت يشاء ، نجد أن الجمعيات التعاونية في الوقت الحاضر قد رأت أن في ترك الحبل على الغارب لكل من يرغب في ترك الجمعية والحصول على قيمة أسهمه ، قد يؤدي إلى أحداث هزات عنيفة تزعزع مركز الجمعية المالي ، كما أنه قد يحرمها أموالا هي في أشد الحاجة إليها لتوسيع أعمالها والاستمرار في نشاطها .

وقد اختلفت الجمعيات في القواعد التي رسمتها لخروج من يرغب الانفصال من عضويتها .

فتشترط بعض الجمعيات أن يخطر بها العضو قبل انفصاله بفترة معينة ، كما تضع جمعيات أخرى حدا أقصي لعدد الأسهم التي يمكن دفع قيمتها في العام الواحد .

وقد تشترط الجمعية مرور فترة معينة على العضوية — خمس سنوات أو أكثر — قبل أن يكون للمساهم الحق في تقاضي ثمن أسهمه والانفصال عن الجمعية .

كما ترى جميعات اخرى الا ترد قيمة الاسهم مهما كثت الظروف ، وعلى العضو الراغب فى ترك الجمعية ان يتصرف فى اسهمه بالبيع او بالتزول لشخص آخر بعد الحصول على موافقة الجمعية .

هذا هو مبدأ البلب المفتوح فى الحركة التعاونية ، وهو برغم ما ادخل عليه من تطورات مازالت مكنته فى الصدارة من المبادئ التعاونية، وما زالت الجمعية المثالية هى التى يمكنها ان تلتزم النص الاول للمبدأ .

فإذا عدنا المهترى لاكثر من الف سنة خلت ، لنناقش روح هذا المبدأ فى الدعوة الاسلامية لم نجده يخلف كثيرا عنه فى الحركة التعاونية :

فها هو ذا الاسلام يفتح باب الدخول اليه على مصراعيه لكل من آمن واقتنع بدعوته ، ورغب فى اعتناقها .

لم يبق الاسلام أى فوارق يمكن ان تكون عائقا دون الدخول فيه ، فقد نظر الى الناس جميعا على أنهم (سواسية كاسنان المشط) .

ازال فوارق اللون والجنسية (لافضل لعربى على عجمى ، ولا لبيض على اسود الا بالتقوى) ، وكان بلال من اشد المقربين للرسول ، وهو مبد اسود .

ازال الفوارق الناجبة عن اختلاف توزيع الثروة والجاه ، ففتح بابه للباسين والمستضعفين ، وهذا ابو جهل يأتى الى رسول الله مهرولا ليسأله بلستنكر :

اجئتنا يا محمد لتجعل ابن سبية الذليل ، والوليد سواء ؟ .

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم ، فما هما الا ولدا آدم ، وأدم من تراب .

فلايكاد يصدق أبو جهل ويعود مستائفا تسأله :

وتجعلهم أندادا لنا وهم عبيدنا وموالينا ؟ .

فيجيبه الرسول اجلة قاطعة :

نعم ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الارض .

كما ازال الاسلام أى تمييز لفارق السن عند اعتناقه ، فكان على ابن أبى طالب من اوائل المسلمين وهو صبى لم يزل فى العاشرة من عمره .

وأزال فوارق الجنس، فمنح المرأة الحرية التي منحها للرجل وحقوقه عند اعتناق الإسلام .

« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبيلعنك » إلى آخر الآية الكريمة (١)
أما الشطر الآخر من المبدأ ، وهو الخالص بحرية الخروج فائقا
لاتفتقده في الدين الإسلامي الذي التزم قاعدة مقدسة (لا إكراه في
الدين) :

فإن الارتداد عن الدين اعتبره الإسلام جزءا من حرية العقل
والضمير التي أقيم الإسلام عليها دعوته ، فمن شرح الله صدره للإسلام
بقي عليه وعش فيه ، والا خرج وكفى جماعة المسلمين شره .

فبعد ما أرسلت قريش وفدا على رأسه سهيل بن عمرو لمفاوضة
الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلح اشترطت قريش شرطا وافق
عليه الرسول وأدرجه في نص المعاهدة ، وهذا هو نص هذا الشرط :

« هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلاحا
على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأن فيها الناس ، ويكف بعضهم
عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ،
ومن جاء قريشاً بمن مع محمد لم يرد ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد
محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل
فيه » .

وعند ما وصلت المفاوضات إلى هذه النقطة قال المسلمون لرسول
الله صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله ، أكتب هذا ؟ .

فأجابهم الرسول بما معناه :

نعم . أنا عبد الله ورسوله إن أخلف أمره ، وإن يضيئني ، أنه
من ذهب منا إليهم فقد أبعد الله ، ومن جاعنا منهم فسيجعل الله له فرجا
ومخرجا .

هكذا رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوط هذا المبدأ
المثالي الذي يكشف عن سبل متناهية في الدعوة الإسلامية .

(١) سورة المتحنة . آية (١٢) .

وقد اقتضت الظروف بعد ذلك أن يدخل الاسلام تعديلا على هذا الجزء من المبدأ ، وكان مضطرا أن يفعل ذلك .

ذلك أن اليهود تأمروا نبييا بينهم على أن يتظاهر فريق منهم بالدخول في الاسلام ، فيثبتوا بذلك استعدادهم لترك دينهم القديم ، ويبرعوا من تهمة التعصب له ، ثم يرتدوا بعد ذلك عن الاسلام حتى يشيع بين جماهير النبيين أن اليهود ماهجروا الدين الجديد الا لا استبان لهم من بطلانه وثقاته .

« وتالت طائفة من اهل الكتف آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

كما واجه الاسلام طائفة أخرى من المنافقين كانوا يتظاهرون بالاسلام الا أن تصرفاتهم وأعمالهم كانت جميعا موجهة ضدّه ، ومثل هذه الفئة تكون في خطرها اشد من يجاهر مراعاة بعدائه للاسلام .

كل ذلك كان يقع في وقت يواجه فيه الاسلام أخطارا كثيرة ، وعدوانا من كل جانب ، ويجد نفسه مضطرا للدفاع عن بقله ، لقد كانت الحرب التي يواجهها تستهدف ازالته واجتثاث جذوره من القلوب التي كُتبت به .

(ولا يزالون يقتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فبئس ما كان له ، فاولئك هم فيها خالدون) .

هكذا قيد الاسلام حرية الخروج بعد أن خرجت المسألة عن كونها قضية مبدأ أو حرية شخصية ، وانما أصبحت قضية دفاع عن النفس ضد جريمة من جرائم القدر والخيلة ، وأصبح التجاوز عنها نوعا من السذاجة والغبلة .

نشر العلم

« انما بعثت معلما ، انما بعثت لاتيهم مكرما
الاخلاق »

(حديث شريف)

« كذلك فلن التعلون ، وهو الصورة الثالثة من
حضور المجتمع الذي نمسى لاقبلته ، لا يمكن أن يقوم
« لا اذا تم العلم بالتمكين له »
(جمال عبد القاصر)

ان دعوة تنق في نفسها وتجعل هدفها العقل ، وسبيلها المنطق ، دعوة هذه طبيعتها — لابد ان تعمل على ايقاظ العقل وتقويته لتستد منه قوتها .

من هنا اهتمت الدعوة الاسلامية بالعلم ، واهتت الحركة التعاونية به ايضا .

وقد اوضح التعاونيون منذ وجدوا ملادة التعليم وضرورته النهوض بحركتهم التعاونية .

فكان «روبرت اوين» صاحب نظريات التعاون الاولى كتبها ومحاضرا، كما قام بإنشاء مدرسة في نيولانك تعتبر بداية للحركة التعاونية الانجليزية .

كذلك كان قادة التعاون في ذلك العهد يتولون طبع الكتب والقام المحاضرات على زملائهم في الحركة .

وفي عام ١٨٤٩ عند ما شعر رواد « روتشديل » بأن مركز جمعيتهم المالي قد صار متينا ، بدعوا في تنفيذ دعوتهم التعليمية ، فكونوا من بين اعضاء جمعيتهم لجنة للتعليم قامت بافتتاح مكتبة لبيع الجرائد والكتب ، كما اتشسوا قاعة للمطالعة .

ويقول وليم « روبرتسون » في كتابه عن هؤلاء الرواد ، انهم عنوا عملية خاصة بنشر العلم بين اعضاء جمعيتهم ، وركزوا اهتمامهم في ذلك النوع من العلم الذي يكون المواطن ، ويزيد في معلوماته وادراكه ، ويبصره بمصلحته كفرد يشعر بقيمة العمل والتفكير لرفع مستواه مع عدم تجاهل مصلحة الجماعة .

ويضيف روبرتسون : انه في عام ١٨٥٣ انضمت الجمعية الى نظامها ان تستقطع ٢٪ من صافي الربح للاغراض التعليمية ، واستعمل هذا المبلغ لأول مرة في توسيع مكتبة كان قد بدى بها على نطاق ضيق، وتوالت الاعوام وازدادت المكتبة اتساعا ، وتوافرت فيها وسائل الاطلاع، وفتحت ابوابها للجمهور من الثلاثة صلبا الى التسعة مساء ، ومنذ

فلك التاريخ والجمعية تخصص نسبة تتراوح بين ٢٪ و ٥٪ من صفى
لربيلها لأغراض التعليم .

وفى علم ١٨٧٧ يكتب التعلونى الانجليزى ابرام جرين :

« ان هؤلاء القادة كقوا يجتمعون بعد عملهم اليومى الشاق فى
الحجرة الخلفية لتجرحهم للاستماع الى اخبار الاسبوع ، وتتبع ذلك بمض
المنقشات التى تعتبر من أهم وسائل التثقيف .

وفى علم ١٨٤٨ استولى هؤلاء القادة على المبنى الذى كان فيه
متجرهم .

وفى علم ١٨٤٩ أسست حجرة للأخبار ومكتبة ، وكان الاعضاء
يبدونها بترعات لاتزيد على بنسبن فى الاسبوع .

ثم قوى عندهم الامل بعد نجاح هذه التجربة . ولما كتبت التبرعات
لاتدر دخلا كافيا لمواجهة المصروفات المتزايدة للمكتبة فقد قدم الاعضاء
التماسا الى الجمعية بطلب المساعدة ، وقوبل هذا الاقتراح بموافقة
أغلبية الاعضاء ، بل قوبل بحملى دفعهم الى الموافقة على اعطاء المكتبة
منحة مقدارها خمسة جنيهات كل ثلاثة اشهر ، وصرف يبلغ ٤ جنيه
دفعة واحدة ، وقد تم ذلك فى أحد اجتماعهم الدورية » .

وعلى هذا النوال الذى اختطفه جمعية «روتشديل» سارت جمعيات
أخرى كثيرة فى ذلك العهد .

وفى علم ١٨٧٠ اتخذت الجمعية العمومية للجمعية الروتشديالية
قرارات للنهوض بالثقافة ، فملاوة على ادارة المكتبة وحجرة
الاخبار فى المركز الرئيسى للجمعية وفروعها ، فان الجمعية قبلت بدعوة
محاضرين من ذوى الكفايات المتأثرة لزيارة الجمعية والقاء محاضرات فى
جميع الموضوعات التى تمس حياة الاعضاء ، وقد كتبت للجمعية فى ذلك
الوقت قاعة خلصة للمحاضرات .

ثم وجهت تلك الجمعية اهتمامها الى تنظيم فصول دراسية . وفى
علم ١٨٧٣ قررت الجمعية الاشتراك مع قسم العلوم والفنون بجنوبى
كوتستون الذى كتبت تدفع له المنح الدراسية .

وتد انضم للجمعية فى العلم الاول لهذا المشروع واحد وثلاثون
طلبا لدراسة العلوم فى هذا القسم .

أما الدراسات العملية الخاصة بمختلف الأعمال والحرف فكانت قد بدأت قبل ذلك بكثير .

ويذكر هولويوك في كتابه (تاريخ الروتشدالين الأوائل) أنه في الفترة التي بين عامي ١٨٥٠ و ١٨٥٥ افتتحت الجمعية مدرسة للشباب مقابل بنسين في الشهر ، وفي عام ١٨٥٥ افتتحت اللجنة التعليمية فصلا لتعليم بعض الحرف ، ويتسع هذا الفصل لثلاثين طالبا بين سن ١٢ و ٤٠ سنة ، وكلفت الدروس تلقى أيلم الأحد والخميس .

ويجب أن نذكر هنا أن التعليم الأولي الإجباري لم يكن له وجود في ذلك الوقت ، كما أن كثيرا جدا من التعاونيين كانوا يجهلون القراءة والكتابة ، ولهذا اتجهت الجمعية إلى الاهتمام بهذا النوع من التعليم .

كما اتجهت إلى تنظيم فصول لتدريس العلوم والفنون ، وفي عام ١٨٨٣ كان هناك الفصول ما يقرب من ٤٠٠ طالب زاد عددهم إلى ٥٠٠ طالب في عام ١٨٨٦ .

وفي عام ١٨٨٦ و ١٨٨٧ قبلت لجنة التعليم المنبثقة عن الجمعية بتنظيم دراسات في الكيمياء والصناعة حيث أنشأت أحسن معمل كيميائية بالمدينة .

وقد بدأت السلطات المحلية في مباشرة مهمة التعليم للأفراد الشعب ابتداء من عام ١٨٨٠ ، وعلى الرغم من ذلك استمرت الحركة التعاونية في تلك البلاد تؤدي دورها التعليمي .

وفي خطاب القاه أرنولد توينبي التعاوني الإنجليزي بجمعية أكسفورد عام ١٨٨٢ قال :

إن هذا العمل الذي قام به التعاونيون إنما كان يهدف إلى تثقيف الشعب وتبصيره بأبواب الحياة ، وقد رأينا أن قادة روتشدال قد أدركوا هذه المسؤولية فضلا عن تقديمهم مساعدات فنية علمية ، كما أنه فضلا عما قامت به الحركة التعاونية للتعليم فإن الجمعية التعاونية كلفت بين الأوائل الذين نظّموا محاضرات جليلة على نطاق واسع ، كما عملوا على توسيع المجال الدراسي في الجامعات ، وقام هؤلاء القادة الأوائل بإعطاء حصص دراسية بين المحاضرات ، والذي لا شك فيه أن هذه الدروس كلفت نواة لانشاء أقسام التدريس بالجامعات الموجودة الآن .

وفي عام ١٨٧٩ تناول البروفيسور ستيوارت الموضوع نفسه في خطاب القاه في أثناء اجتماع للتعاونيين .

« اذا كلن اعضاء جمعيتكم غير ملين الملل تلبا بالعلوم الاقتصادية والحقوق التجارية وحالة الحكم فى هذه البلاد وغيرها من البلدان ، وتاريخ التجارة والعلوم العلة والعلوم الخاصة الهلة التى ترمون اليها وتسعون للوصول الى معرفتها فسوف يصبح رجالكم خطرين على الحركة التعاونية ، كما يصبح مركزكم خطرا ، وهذا يؤدى الى فشل محولاتكم . ان حركتكم حركة ديمقراطية اذا كلن هناك شيء بهذا المعنى ، ونجاحها يعتمد اعتمادا كليا على حسن ادراك اعضائكم فيجب عليكم لولا تعلم اعضائكم القواعد والمبادئ التى تسيرون عليها ، كما يجب ان يكونوا ملين الملل تلبا بالعلوم الاقتصادية وتاريخ المحولات التى قلبت قبل حركتكم ، وكذلك يجب ان يكون اعضاؤكم على درجة كبيرة من الثقافة العلة ، لان التعليم مرغوب فيه للجنس البشرى وضرورى جدا للتعاونيين » .

وقد اهتم المركز الرئيسى لاتحاد التعاونيين بمعالجة هذا الموضوع وتنظيمه ، فاعد تقريرا شللا لهذا الغرض فى سنة ١٨٨٣ ، كما كون لجنة لشئون التعليم ، واشترك مع جليلة اكسفورد فى تنظيم محاضرات للتعاونيين .

وفى العام المذكور اصدر المجلس القرار الهلم التالى :

« على المجلس المتحد المشترك ان يعين من بين اعضاءه لجنة علملة للتعليم تد الحركة التعليمية التعاونية بما تحتاج اليه ، وعلى المجلس ان يقوم بهذا العمل فى الحال » .

واستمر ذلك المجلس فى تشجيعه للتعليم ، فكان يخصص منحا دراسية للمتفوقين من التعاونيين فى مختلف مراحل التعليم .

واستمر هذا المبدأ ينتشر بقتشار الحركة التعاونية حتى لنجده قد بلغ اقصى درجات هذا الانتشار فى وقتنا الحاضر .

ذلك ان الحركة التعاونية المعصرة قد جعلت الاهتمام بالتعليم مبدءا من اسمى مبادئها ، وان اختلف تطبيق هذا المبدأ بين جمعية واخرى .

فنشاهد ان بعض الجمعيات تكون لجنة خلصة لشئون التعليم او تخصص له جزءا من اربلها كل عام ، او قد تنفق على النهوض به من لموالها باعتبارها احد الابواب الضرورية المستحقة للاتفاق .

كما قد تتطور بعض الجمعيات لتكون اتحادا للتعليم او فرعا تعليميا ينبثق عن ذلك الاتحاد .

وفى تقرير رفعه التعاونى « سير ملكولم دارلنج » عام ١٩٣٥ عن نواحي التعاون فى كبرى الماطلمت الهندية ، لفت فيه النظر الى ان الحركة التعاونية تصاب حتبا بالفشل الفريم بدون التدريب والتعليم .

وفى انجلترا ائتشت الجمعيات التعاونية اتحادا تعاونيا يقوم باعمال علمية متشعبة فى مجال البحث والتوجيه والارشاد ، كما يقوم باصدار الكتب والنشرات والمجلات والصحف ، ويقوم ايضا بادارة كلية التعاون التى تعتبر اكبر كلية من نوعها فى العالم .

وفى هولندا تمتلك الحركة التعاونية صحيفة تعاونية منظمة تقوم بطبع ونوزيع نحو ربع مليون نسخة .

وتتولى الحركات التعاونية اصدار صحف اخرى ناجحة فى كثير من بلاد اوربا ، كالسويد ، وايطاليا ، وفنلدة . وفى هذه الاخرة اقتصر نشاط الجمعية التعاونية للتجار بلجلة فى العلم الاول من انشائها على الاغراض التعليمية .

وفى بلجيكا تجمع الجمعية التعاونية العلمية بين العناية بالناجية الثقافية والعناية بالناجية الاقتصادية .

وفى الدانمارك تم انشاء مخرستين تعاونيتين .

وفى الاقليم المصرى دار التعاون للطباعة والنشر تقوم فيها هذه الدار باصدار كتب ونشرات تخدم الحركة الثقافية والتعاونية ، كما تقوم باصدار جريدة اسبوعية منتظمة .

وقد ساهمت الجمعيات والمنشآت التعاونية فى انشاء (المركز الثقافى التعاونى) بمدينة الاسكندرية .

كما قلبت جمعيات تعاونية كثيرة بلشاء مكاتب بها ، ويقوم كثير من الاتحادات التعاونية بالاقليم باصدار مطبوعات ونشرات دورية .

وهكذا يتضح لنا مدى الاهتمام الواسع الذى يلاقيه العلم من الحركة التعاونية .

فأى موقف اتخذه الاسلام من هذا المبدأ ؟

« اقرا »

تلك كانت اول كلمة مسلوية يهبط بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى اروع دعوة الى العلم والثقافة .

لقد دعا الاسلام بنصرار الى طلب العلم ، العلم اينما وجد ، وبأى سبيل . (جذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) ، (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ، (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم) .

وجعل الاسلام العلم هدفا للمؤمنين (الحكمة ضالة المؤمن) ورفع الله ورسوله من مكفة العلم وطلبيه (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) « قرآن كريم » .

و (يرجح مداد العلماء دماء الشهداء يوم القيامة) (حديث شريف)

وينقله الرسول صلى الله عليه وسلم من شيء مرغوب فيه الى مرتبة الفرض (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ولا يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم برفعه الى هذا الحد ، بل يجعله فى مكان الصدارة من الفرائض ، كما جاء فى بعض الروايات (درس علم خير من عبادة ستين سنة) .

ويفرق سبحانه وتعالى بين المتعلم وغير المتعلم فى تساؤل حكيم .
(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

ثم يشير سبحانه وتعالى الى مكفة هؤلاء الذين يعملون ، ويتقربون شهادتهم بوجود الخالق بشهادة الملائكة : (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قلها بالقسط) .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أى جزاء ينتظر السامعين الى العلم فيقرن طريقهم بطريق الجنة : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة) .

ويذكر عليه الصلاة والسلام فوائد العلم فى دعوته له (تعلموا العلم ، فيه يعرف الحلال من الحرام ، وهو منار الجنة ، وهو الاتيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والمصبر على الضراء ، والوزير عند الإخلاء والقريب عند الغبراء) .

ثم ترتفع مع الدعوة الاسلامية درجات فى تجميعها للعلم والعلماء عند ما تعتبر أن الإيمان يكون ناقصا إذا لم يصدر عن علم وإدراك (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) ، (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

ومن الخطأ أن يظن ظان أن الاسلام لا يدعو الى تعلم العلوم الكونية

و الاغتراف من مناهل العلوم العصرية . فلقد نبه الى النظر في كل ما خلق الله من شيء في السماء والارض ، وفي الانسان نفسه ، والجماعات البشرية . وموضوعات العلوم المختلفة لا تخرج عن هذه الدائرة .

يضاف الى هذا ان الاسلام جعل مناط الايمان في مستقبل هذا العالم الى ازدياد العلم بهذه الحقائق . (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .)

كل هذا دفع احد مفكري الغرب الى القول بأنه (اذا كان في الارض اديان تعادى العلوم فان الاسلام على العكس لا يقوى ولا يزدهر الا بانتشار العلوم وتقدمها . اذ ان بينه وبينها رابطة اكيدة : فلا يمكن نسبة الانحطاط الحالي بين المسلمين الى دينهم . لانه كان فيما مضى السبب الوحيد في رقيهم وعظمتهم) .

ويقول المستشرق درابر في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

(لقد كان تفوق المسلمين في العلوم ناشئا من الاسلوب الذي تتوخوه في مباحثهم : هذا الاسلوب الذي اوجب لهم الترقى الباهر في الهندسة ، وحساب المثلثات ، واكتشف علم الجبر) .

ولم يقف الاسلام عند حد تشجيع الاقبال على تعلم العلوم الحديثة النفيسة ، بل اعتبر ان كل علم او فن يحتاج اليه الامة في حياتها يعتبر فرضا كماله يجب على طائفة منها ان تتزود منه وتقوم بتحصيله والا وقعت الامة كلها في الاثم .

وجميع العلوم الحديثة والكونية من طب ، وفلك ، وهندسة ، ومسيلة ، وطبيعة ، وكيمياء وغيرها يعتبر تحصيلها من غروض الكمالية لحاجة الامة اليها .

وبينما يقول مدير الحلف التعلوني العالي : (قيل عن التعلون انه حركة اقتصادية وسيلتها الاعمال التعليمية ، ويستقيم المعنى بالدرجة نفسها من الصحة اذا قلنا : انه حركة تعليمية وسيلتها الاعمال الاقتصادية ، وبينما يقول احد اقطاب التعلون هذا الكلام ، نجد ان الكثيرين من الصحابة قد طبقوه بصورة عالية في الدعوة الاسلامية . فقد كان اغلبهم تجارا ، وبذلك جمعوا في اطار الاسلام بين العلم والتجارة ، واستطاعوا ان يجعلوا المال اداة لنشر الفكر .

فلبو بكر كان بزازا ، وعمر كان تلجرا ، وسعد بن أبى وقاص كان
يبرى النبل ، وعثمان بن عفان كان بزازا ، وعبرو بن العاص كان جزارا .
والرسول نفسه صلى الله عليه وسلم اشتغل بالتجارة فى وقت ما .
وعندما بدأ أبو حنيفة يمتحن التجارة استعمل بالعلم ، فدرس فنون
التجارة وأصولها على يد أحد أساتذتها ، وقال مرة مخاطبا أحد التجار .
(أراك تتجر ، التجارة إذا كلفت من غير علم دخل فيها فساد كبير .
فلم لا تتعلم ولا تكتب ؟) .

وبعد أن هاجر المسلمون الى المدينة واستقروا فيها ثم اشتعلت
نيران الحرب بين المسلمين وأهل الشرك ، وتبين للرسول صلى الله عليه
وسلم أن أهل المدينة لا يكتبون بعكس أهل مكة ، فدفعه ذلك الى القيام
بأول مشروع لمكافحة الأمية ، فجعل على كل أسير من أهل مكة ليس له
غداء أن يقوم بتعليم عشرة من غلمان المدينة حتى إذا حققوا كل ذلك
غداه ...

ويستمر العلم محتلا مكناته العالية فى قلوب حكام المسلمين فى
عصور الاسلام الاولى حتى نستطيع الى عالم ضريح هو أبو معلوية يقول :

(اكملت مع الرشيد يوما ما ، فصب على يدي الماء رجل ، فقال لى
يا أبا معلوية ، أتدرى من صب المساء على يدك ؟ فقلت : لا ، يا أمير
المؤمنين . قال : أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولم تفعل هذا ؟ قل :
اجلالا للعلم) .

هكذا فتح الاسلام أبوابه واسعة العلم الذى جعلته الحركة
التعاونية لها مبدأ فيما بعد .

والآن يمكننا أن نحكم بأن « ه . ه . الدن » ممثل السويد فى المؤتمر
التعاونى السادس عشر للحلف التعاونى لم يذهب بعيدا عن نصوم
الاسلام حينما وقف يعلن فى المؤتمر المذكور :

(انه إذا اتاحت الفرصة لبدء حركتنا من جديد وخيرنا بين أمرين
كلاهما ممكن : اما البدء بأعضاء مستعيرين وبلا رأس مال ، او البدء برأس
مال كبير وأعضاء على غير علم ، فإن تجربتنا تعلمنا علينا ان نختار أول
الطريقين) .

الديمقراطية في الإدارة

أيها رحمة من الله كنت لهم : ولو كنت نظماً
غليظ القلب لاتفضوا من حولك : نافع عنهم
واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)
« قرآن كريم »

ان التاريخ يرينا ان كل دعوة سالحة تهدف الى خير البشر انما جاءت على انقراض دعوة أخرى فليست كبلت الواقعين تحت سيطرتها بقيود قد تزيد أو تقل ، لكن لابد ان يكون ضمن هذه القيود قيد مشترك هو قيد الاستبداد .

وقد يختلف هذا القيد ايضا بين دعوة وأخرى :

فعندما ظهر الاسلام كان المستبد يقول النفس المسيطر عليها مجموعة من الأساطير والمعتقدات البالية .

وعندما لجأ رولد روتشديل الى التعاون ودعا اليه كان الذى يقوم بدور المستبد فى كل مكان مجموعة من الاقطاعيين وأصحاب الاعمال .

وفيما قبل روتشديل نجد الكثير من المستبد بهم يحاولون أن يزرعوا بذرة التعاون باعتباره منقذا لهم ، آملين ان تثبت هذه البذرة حتى تصير فى يوم ما شجرة يستظلون بظلها .

فى سنة ١٧٩٥ رفعت مطلحن هال فى يوركشاير أجور الطحن الى حد خيالى بعد ان احتكرت ملكيتها مجموعة من الاقطاعيين . وعجز الفقراء عن طحن غلالهم ، ومن ثم عجزوا عن الحصول على الخبز ، لانهم لا يملكون الاجر غير العادل الذى يطلب منهم .

ولم يجد هؤلاء غير التعاون حلا لمشاكلتهم ، فلجئوا اليه حيث اجتمعوا وناقشوا واتفقوا على انشاء مطحن تعاونى يساهمون فى تكاليف انشائه جميعا .

ثم ظهر داعية تعاونى آخر هو روبرت اوين ، وكان الفضل فى التجاؤه الى التعاون هو وجود الاوضاع الاستبدادية المنكرة التى كان يحفظ على بقائها الاقطاعيون وأصحاب الاعمال .

فقد كان هؤلاء يجبرون العادل فى مزرعتهم أو مصنعهم على العمل مدة تصل الى ثلثى عشرة ساعة فى اليوم الواحد ، وكان من بين هؤلاء العمال صبية لم يبلغوا سن العاشرة ، اذ انهم كانوا يفضلون اختيار

علمهم من الاطفال ابتداء من سن السبعة نظرا لرخس اجورهم ، وكثروا
يعدون لهم غرضا ملحقه بالمصانع لينهلوا فيها جياعت مختلطين بين هم
مرضي .

ومن كل هذه الاوضاع كلن هؤلاء الاتطاعيون يستبدون ثراءهم !!

اثار ذلك الاستبداد (روبرت اوين) نهب لمقاومته مطالبا الحكومة
أولا بالعمل على تحسين حال العمال في انجلترا ، وذلك بأن تسن القوانين
لخفض ساعات العمل اليومية الى عشر ساعات ونصف الساعة . ولنعم
تشغيل الصبية الذين تقل اعمارهم عن العشرة ، وجعل التعليم الاولى
الزاميا للصغار .

غير أن الحكومة الانجليزية - وكلفت هي الاخرى جمسوعة من
المستبدين - أهملت مطالبه .

فلم يجد « اوين » أمامه سبيلا غير التعاون ، فاستقر رأيه على
انشاء جمعيات تعاونية زراعية وصناعية تكون مصادر الثروة فيها ملكا
شائعا بين الامراد المشتركين فيها .

ومن هنا لقب هذا الرجل بلقب « أبو التعاون » .

وهكذا كان للاستبداد الفضل في خلق مبدا ودعوة ، ومن هنا ايضا
كان لابد للحركة التعاونية ان تجعل من أهم مبادئها الاخوة والمساواة في
الادارة او ما نسميه ببدا (الادارة الديمقراطية) .

وقد ورد في المادة الثنية من قانون الجمعية التعاونية الاولى :

(ان الجمعية العمومية تنتخب لادارة الجمعية مجلسا يتألف من
رئيس ، وسكرتير ، وامين صندوق ، وأعضاء آخرين) .
وفي عام ١٨٤٥ اطلقت الجمعية الى قانونها :

(ان الاعضاء يحضرون الجمعيات العمومية بأنفسهم ، ويكون لهم
الحق في مناقشة جدول اعمالها ، وللفرد الواحد صوت واحد ، ولا يكون
لأى منهم أكثر من هذا العدد في اتخاذ القرارات ، فإذا تساوت الاصوات
عند أخذ الرأي كان صوت رئيس الجمعية أو من جلس في مكتبه لنيابه
مرجحا ، وتدار المناقشات جميعا بأغلبية الاصوات في كل المسائل ما عدا
حل الجمعية فله ترتيب ونصاب آخر يحدد بقانون خاص) .

هذا هو مكن الادارة الديمقراطية في الحركة التعاونية ، فأى مكن
لهذا المبدأ في الدعوة الإسلامية ؟!

« وشاورهم في الأمر » .

هكذا أمر الله تعالى نبيه الذي كلن امينا في تنفيذ امر الله ، حريصا على هذا التنفيذ .

والقرآن الكريم عندما وضع اصولا وقواعد علمية لتنظيم شئون الامة انما ترك التفاصيل ، ففتح بذلك الباب على مصراعيه أمام حرية الفكر والتشاور للوصول الى اصوب الآراء :

نفى غزوة بدر اختار الرسول صلى الله عليه وسلم موقعا للحرب ينزل فيه جيش المسلمين فلما يتقن الحبيب بن المنذر ان اختيار هذا الموقع لم يتم بناء على وحى من الله ، وانما جاء هذا الاختيار اجتهادا في قواعد الحرب والمكيدة — اثار على الرسول صلى الله عليه وسلم بموقع آخر فقبل الرسول رايه ، وترك الموقع الذى اختاره الى الموقع الذى اثار به الحبيب .

وعندما أعلن معاذ بن جبل انه سوف يجتهد برأيه فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة — وكان ذلك في اثناء ايفاد الرسول عليه الصلاة والسلام له الى الين — ويسمعه الرسول يعلن ذلك فنه لا يكتفم اعجابه به بل يقول :

(الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضي رسول الله) .

وهامو ذا اعرابى يساق الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استبجت به رعدة لعلبه بجلال الشخصية التى هو مسوق اليها ، فيخفف الرسول عليه السلام من روعه قتلا ما معناه :

« هون عليك ، انى لست بملك ، انا ابن امرأة من قريش كنت تكلن القديد » .

ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الديمقراطية اثنى من خلفاء المستقبل ، فيلقى عليهما درسا يتألف من جملة واحدة عندما يقول مخاطبا ابا بكر وعمر :

(لو اتفقتما على امر ماخالفكما) .

وهذه القاعدة تمثل النص الذى اخذته الحركة التعاونية عندما جعلت نظم التصويت فيها لا يمنح العضو الواحد الحق في أكثر من صوت واحد أيا كان مركزه أو مقدار مساهمته .

وينهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكبر وهو قرين الاستبداد
: لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر) .

ثم ينذر عليه الصلاة والسلام المستبدين بأنهم سيكونون في طليعة
من يدخل النار : (عرض على أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلم ..)
إلى آخر الحديث وهو وارد في موضع آخر من هذا البحث .

ويؤيد الحديث القضي هذا المعنى نفسه : (الكبرياء ردائي ، والعزة
أزاري ، فمن نازعني شيئا منهما عذبتة) .

وتتجلى ديمقراطية الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحقق المشركون
واليهود بالمدينة محاصرين فيها المسلمين ، ذلك الحصار الذي وصفه
سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : (أذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم
وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك
ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا) .

وفي هذه الأيام العصيبة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمل
الحيلة لفك الحصار باغراء بعض القبائل بنصيب من ثمار يثرب ، فبعث
صلى الله عليه وسلم إلى ثقيف غطفان — عيينة بن حصن ، والحارث
ابن عوف ، وتفاوض الجحفيان على أسلح أن يأخذ القحطان ثلث عمارة
المدينة ويرجعا بمن معها ، وجرى الاتفاق والصلح على ذلك ، وكتب
الطرفان معاهدة بما اتفقا عليه .

وقبل توقيع المعاهدة استشار الرسول كلا من مسعد بن معاذ ،
ومسعد بن عباد ، فقالا له صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله : شيء أترك الله به لأبد لنا من اتباعه ، أم امر نجبه
غضنعه ، أم شيء تصنعه لنا ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

بلى ، شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا أني قد رأيت
الحرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبؤس من كل جانب ، فأردت أن
أكسر عنكم شوكتهم .

فقال له مسعد بن معاذ :

يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة
الإنسان ، لا نعبد الله ولا نمرقه ولا يطعمون أن يأكلوا من ثمره واحدة ،

أفحين أكرمنا الله بالاسلام واعزنا بك نعطهم اموالنا ؟ ملنا بهذا من
حاجة ، والله لاتعطهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم ضاربا المثل في الديمقراطية
الحقة .

(انت وذاك) .

فتناول سعد الصحيفة ومحا ما فيها من الكلبة ثم قال :

ليجهدوا علينا .

وقبيل غزوة أحد عقد المسلمون اجتماعا بحضور الرسول صلى الله
عليه وسلم ليتشاوروا في وضع خطة الحرب ، وظهر من المناقشات ان
المجتمعين راين :

الأول يشير باستدراج جيش قريش الى المدينة ومحاصرتها بها حتى
يسهل القضاء عليه .

والراى الآخر ينادى بالخروج للقتال الاعداء قبل وصولهم وقطع
الطريق عليهم ببلاطتهم بالهجوم .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام من انصار الراى الاول ، واعلن
عليه السلام موقفه لائس وعرض عليهم الموافقة عليه .

ولكن الشباب المتحمسين وقفوا في صف الراى الاخير ، وكان
الشباب هم الذين يكونون الاغلبية في ذلك الاجتماع .

وخضع الرسول لراى الاغلبية ، وقلم صلى الله عليه وسلم الى
منزله فارتدى لأمته وعاد الى القوم مستعدا للحرب .

ولما رآه المسلمون قد ليس سلاحه ، واحسوا انه انما فعل ذلك
بعد ان غيروا رغبته وأنزلوه على رايمهم شعروا بالفهم ، واستكثروا ان
يشيروا عليه صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه .

نقلوا اليه معتذرين :

يا رسول الله اصنع ما شئت .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرجع برغم ذلك عن التزام
الراى الذل اقرته الاغلبية واستقرت عليه في اجتماعها ، فيقول لهم :

لا ينبغي لئبى ان يلبس لأمته فيضعها حتى يقتل .

ويوم حنين ، عاد صلى الله عليه وسلم ومعه من هوازن سبيليا كثيرة ، فلاحق به وفد منهم بعد أن أسلموا وطلبوا منه عليه السلام أن يرد عليهم سبيلهم من أموال وأنفس وأخذا يتوسلون اليه في سبيل ذلك بالصلات التذبية التي كانت تربط بينه وبينهم فيقول قائلهم :

يا رسول الله ، ان في الحظائر عبتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكلنك .

فلا يرى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من حقه أن يتصرف الا غيبا يخصه فقط .
فيقول لهم :

(أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، واذا ما أنا صليت الظهر بفنفس ، فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين في ابنائنا ونسائنا) .

وفي المسجد فعلوا ماصحهم الرسول صلى الله عليه وسلم بفعله ، فنهض صلى الله عليه وسلم معلنا للفنفس ان ما كان له ولبنى عبد المطلب فهو لهم ، فقام المهجرون فأعلنوا : ان ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويحرص عليه الصلاة والسلام بأن تظل الديمقراطية سائدة في الأمة الإسلامية من بعده ، فينادي بالتحقيق في اختيار الاصلح لتولي أمور المسلمين (ايما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة افضل مما استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله ، وغش جماعة المسلمين) .

ويحمل الرسول صلى الله عليه وسلم مسئولية الإدارة لكل من يتولاها في أمور الحياة كافة ، مرتبا اياها في تقسيم شامل : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمر راع على الناس وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت بعلمها وهي مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

هذا هو الرسول محمد الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها :
(ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله) .
وعندما انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى لم يعين خلفا له ، مفضلا ان يترك ذلك لأراى المسلمين .

وقد طبق المسلمون المبداً المحمدية فاجتمعت جمعيتهم لتناقش هذا الأمر ولترى الأصل لتولى شئونها فتخاروه ، واستقر رأيهم على أن أجدر من يشغل مكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر فليعموه .

ولم يخرج عن إجماع المسلمين في ذلك الوقت سوى نفر قليل مثل « أبو ذر الغفاري » و « الزبير بن العوام » و « خالد بن سعيد » ، فقد كان هؤلاء يرون أن علياً بن أبي طالب أحق بالخلافة .

واجتمع هؤلاء في دار فاطمة التي كلفت تقرهم على رأيهم ، وظلوا مطرقتين إلى أن ارتفع صوت المؤذن معلناً : الله أكبر فرفع علي رأسه والتفت إلى فاطمة قتيلاً :

أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟

فأجبتها فاطمة : لا

فقال علي : إذن ، سأبيع أبا بكر .

وانطلقوا جميعاً فليعموا أبا بكر .

وهكذا كان خروجهم الأول عن إجماع المسلمين معبراً عن مبدأ الديمقراطية في الإسلام .

وعندما تولى أبو بكر الخلافة كان أول ما فعله أن وقف ليخطب في المسلمين مؤكداً مبدأ الديمقراطية : (أما بعد فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتوني على حق فأعينوني ، وإن رأيتوني على باطل فاستدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم) .

وحينما ينال به أحد أفراد المسلمين بلقب (خليفة الله) يتباطئ أبو بكر بقوله :

لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله .

وفي أثناء خلافته حدث أن عمر كان يتمهد بالرعية مجوزاً كبيرة عبياء تقطن في ضاحية من ضواحي المدينة ، فكان عمر يذهب إليها تحت ستار الليل ليستقي لها ويقضي حوائجها ويقوم بأمرها .

ثم حدث أنه كان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إلى التقييم بشئونها وأصلاح ما تريد ، فحرص غير مرة على التفكير كي لا يسبقه أحد ، لكنه

كان في كل مرة يجد غيره أسبق إليها منه ، فمسم ذات مرة على الاختفاء
في موقع يشرف على منزل العجوز ليرى هذا المحسن الجاهل ، فلذا به
حينئذ بأنه الخليفة أبو بكر .

وعندما يتولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين تأتي توليته أيضا
طبقا لبدا الديمقراطية في الإدارة ، ثم يعلن هو الآخر رأيه في هذا المبدأ
فور توليه شئون المسلمين : (ان رأيتوني على حق فاعينوني ، وان رأيتوني
على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة
لني عليكم ، واني وليت عليكم ولست بخيركم) .

وتكمل الصورة الرائعة للديمقراطية عند ما ينهض واحد من علية
المسلمين ليقول في وجه عمر :

والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

فيكون جواب عمر :

الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من لو رأى في اعوجاجا
لقومه بسيفه .

وينشد عمر المسلمين مساعدته في تطبيق هذا المبدأ : (اتقوا الله
واعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واحضروني
النصيحة فيما ولاني الله من أمركم) .

وتتطرق كل تصرفات عمر الإدارية بتطبيق هذا المبدأ ، فما هو ذا
يصدق الى المنبر عندما يرى مخالفة الناس في المهور ليقول :

لا تزيدوا في مهور النساء عن أربعين أوقية فمن زاد أوقية جعلت
الزينة في بيت المال .

ويعد نزوله من فوق المنبر ، وقتت امرأة من قريش لتبدي رأيها في
قول الخليفة ثقلة : ليس ذلك اليك يا عمر .

فيفتح عمر صدره للنقشة ويقول لها : ولم ؟

فتجيبه المرأة المسلمة :

لأن الله تعالى يقول : (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج واكتبتم
أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) .

فيعود عمر مستغفرا .

اللهم عفا ، كل الناس أفتى من عمر ، أصابت امرأة وأخطأ عمر ،
ثم يعود الى المنبر فيصعده مرة أخرى ليعطن للمسلمين :

كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقات النساء على . . درهم ، فمن
شاء أن يعطى من ماله ما أحب فله ذلك .

ومن أقواله رضي الله عنه :

(أحب الناس الى من رفع الى عيوبى) .

ولم يقتصر الأمر على أبى بكر وعمر - بل كان لمن تبعهم من الخلفاء
أمثلة سلبية في الالتزام بهذا المبدأ ، وهكذا طبقت الدعوة الإسلامية مبدا
الديمقراطية في الإدارة قولا وعملا .

الفصل الرابع

العدالة

(من ولي امرا من امتي قلت او كثرت علم
يعدل فيهم كبه الله على وجهه في النار) .

« حديث شريف »

والعدالة كما يتول التعاونيون هي القلب القوى النابض في جسم الديمقراطية التعاونية السلمية .

والعدالة مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل طريق اتخذه التعاون لنفسه مبدأ ، ولابد أن تسود العدالة كل مجال يمكن ان تتحرك فيه الجمعية .

فالعدالة تلزم الجمعية عند تأسيسها والاشتراك فيها عدم التمييز بين عضو وآخر مهما كان قدره ومهما بلغت قيمة اسهمه ، فلكل عضو صوت واحد في جميعاتها العمومية ، وفي اجتماعات مجلس الإدارة .

ولكل عضو الحق في أن يرشح نفسه للاشتراك في مجلس إدارة الجمعية التعاونية .

وهكذا ترتبط العدالة بمبدأ الديمقراطية في الإدارة .

والعدالة — كذلك — تظهر في امثة الجمعية في تعاملها مع الاعضاء وغيرهم ، وفي التزامها بتسليم السلع الجيدة غير المغشوشة ، والتعامل بالمقاييس والموازين الصحيحة .

والعدالة تقتضي أن ترد الجمعية الى العضو ما حصلته منه في شكل ارباح او اضعفت ، وهذا ما يسمى بالعقد ، وربما لا تحصل الجمعية من العضو على ارباح أصلا .

والعدالة تتطلب مكافأة العناصر التي تساهم في نشاط الجمعية وأهمها رأس المال والعمل .

ولما كان رأس المال في الجمعية التعاونية يعتبر خالدا لا مسيدا فقد جعلت له الحركة التعاونية اجرا ، وهو ما يسمى بالفايدة على رأس المال .

أما العمل — وهو العنصر الثاني الذي يساهم في خلق نشاط الجمعية التعاونية — فلا بد ان تحترمه الجمعية بالحفاظة على حقوق عمالها وموظفيها ومنحهم ما يستحقونه من أجور ومرتبات ومكافآت وكذلك باعطائهم حقوقهم القانونية فيما يتعلق بالراحة وعدد ساعات العمل .

وكما رأينا كتبت العدالة دافعا لروبرت أوين على اعتناق فكرة التعاون حتى يصير أيا له ، فلتقع الى اعتناق هذه الفكرة عندما صدمه أن يرى أصحاب الأعمال وقد سلبوا عمالهم العدالة ، فرغموا ساعات العمل حتى بلغت ثمانى عشرة ساعة وتنفسوا فى استخدام الصبغة من سن السابعة ، وحرروهم الغذاء والسكن الصحى .

وفى المقلب كل الفضل فى نشأة التعاون الزراعى بها يرجع الى « فردريك راينليزن » فان الدافع الذى دفع أوين الى اعتناق فكرة التعاون كان هو الذى دفع راينليزن ، فقد شاهد الظلم المجحف الواقع على المزارعين من طبقة المرابين الذى يتمثل فى قروض تقدم لهم بالربا الفلحش ، الذى كان كثيرا مليؤدى الى خراب بيوتهم لمعجزهم عن الدفع .

كما جعلت الحركة التعاونية من مبدأ العدالة ربطا يجمع بين كل مبادئها ، كذلك كان الاسلام أسبق الى جعل العدالة مبدأ عليها تصطبغ به كل أحكامه ومبادئه .

والاسلام فى نظره للبشرية قد اعتبرها كلها فى الاصل عنصرا واحدا وامة واحدة :

« ياايها الناس انا خلقنكم من ذكر وانثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

« وما كان للناس الالة واحدة فليختلفوا »

والاسلام يدعو المؤمنين جميعا الى اعتناق العدالة وتطبيقها فيما بينهم : (لا يؤمن أحكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .

وبين الرسول صلوات الله عليه وسلامه : اى عقوبة رهيبة تنتظر الظالمين ، فيورد فى احاديثه ضروبا من استبداد هؤلاء الظالمين وما ينتظرهم من جزاء ، وهذا يدلنا على مدى اهتمام الاسلام بالثقة العدالة ومحاربة الظلم بين الناس : يقول صلى الله عليه وسلم :

(من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فلتحتجب دون حاجتهم وخلفتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلفته وفقره يوم القيامة) .

(ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاشى رعيته الا حرم الله تعالى عليه الجنة) .

(من ولى عشرة فحكم بينهم بما أحبوا ، أو بما كرهوا جىء به مغلوله يده ، فان عدل ، ولم يرتش ، ولم يحف فك الله عنه ، وان حكم بغير

ما أنزل الله وأرتشي وحليى شحت يسلمه الى يمينه ، ثم رمى به فى جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة علم .

وعند ما ارتكبت امرأة من أشرف بنى مخزوم جريمة السرقة ، وأرادت قريش أن تعفيها من العقوبة تساطوا بينهم : من يكلم فيها رسول الله ؟ وأجلب اأدهم : ومن يجترئ عليه الا أسامة حبيب رسول الله . ؟

وذهب أسامة ليلخ رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة قريش ، ولكن الرسول يرد على رجله قائلا : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم قام صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلا :

(أيها الناس ، أنا ضل من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم لاقبلوا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

وفى أثناء موقعة بدر ، حدث أن قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذل صفوف المسلمين ، وكان فى يده قدح ، أمر بسواد بن غزیه وكان خارجا عن الصف ، فضرب صلى الله عليه وسلم على بطنه بالقدح قائلا : استو ياسواد .

فقال سواد : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والمعدل .

فكشف له صلى الله عليه وسلم عن بطنه قائلا له : فلتدنى واقتص منى

ويعد أن يضرب صلى الله عليه وسلم هذا المثل للنز فى تطبيق العدالة يعقته سواد ويقبل بطنه قائلا : يا رسول الله أردت أن يكون آخر المهدي بك أن يمس جلدى جللك .

وتتجلى عدالة الرسول عليه الصلاة والسلام فى حسن معاملته لهم وبعده عن الغبن عند دخوله المدينة بعد سيطرته عليها ، فقد قرر لهم حرية الاعتقاد فى بيانه : (لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، ومواليهم أنفسهم) .

ومن خطبة الوداع قوله صلى الله عليه وسلم :

(أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، والمسلمون أخوة ، فلا يحل لأمرئ من أخيه الا ما أعطاه من طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم) .

ويقدر نفر من اليهود عدالته صلى الله عليه وسلم فيقوم واحد منهم ليحارب بجانبه يوم أحد ، فلكم هو مخزيق الذي أخذ يقتل في صفوف المسلمين حتى قتل ، فقال رسول الله : « مخزيق خير يهودي » .

كما تجد عدالته صلى الله عليه وسلم التقدير اللائق بها من النصارى تليجا اليه وفد من نصارى نجران طالبين منه ان يرسل معهم من المسلمين من يستطيع ان يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من امور دنياهم واهوالهم ، فيؤود الرسول معهم ابا عبيدة بن الجراح ، بعد ان يوصيه ان اخرج معهم فلتض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

وكان لأسرى الحرب ايضا نصيب من عدالته صلى الله عليه وسلم . ذلك انه عند ما عاد منتصرا من موقعة بدر ، فرق الاسارى بين اصحابه بعد ان لقنهم درساً في ضرورة تطبيق العدالة في معاملتهم بقوله : استوصوا بالاسارى خيرا .

وحينما استجلز زوج زينب — وهو مشرك — بها فاجارته ، بعد ان فرق الاسلام بينهما ، نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي ابنته : اى بنيه : اكرمي مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فلك لا تخلين له .

وتتجلى عدالة الرسول المالية يوم حنين ، فقد تراحم عليه المسلمون بعد النصر ، كل يتعجل الحصول على نصيبه من الفنائم ، حتى الجفوه صلى الله عليه وسلم الى شجرة جذبت عنه رداءه . فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : ردوا على ردائي ايها الناس ، فوالله ان لو كن لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم ما اليتيمون بخيلا ولا جبقا ولا كذابا .

ثم اخذ صلى الله عليه وسلم من سنام بعير شجرة ورفعها بين اصبعيه قللا :

(ايها الناس : والله مالى من فينكم ولا هذه الوبرة الا الخمس : والخمس مردود عليكم) .

ويأتى عمر بن الخطاب ليضرب لنا هو الآخر مثلا من خلافته المعاملة عند ما جاعته برود من الين ففرقتها على المسلمين فخص كل رجل من المسلمين برد واحد ، وكان نصيب عمر كصيب واحد من المسلمين .

وفصل عمر برده وليسه وصعد المنبر يوما ، فتكلم آهرا الناس بالجهاد الا ان واحدا من جمهور المسلمين قلم مقاطعا اياه بقوله :

لا سمح ولا طاعة .
غسله عمر : ولم ذلك ؟
غأجله الرجل : لآتلك استأثرت علينا .
تعدد عمر يسأل الرجل :
ويأى شيء استأثرت ؟

قال الرجل : أن الإبراد اليمنية لما فرقتها حصل كل واحد من المسلمين على برد منها ، وكذلك حصلت أنت ، والبرد الواحد لا يكفيك ثوبا ، وتراك قد فصلته قميصا ثوبا ، وأنت رجل طويل : فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه ملجأك منه قميص .

فالتفت عمر بن الخطاب الى ابنه عبد الله وقال له :
يا عبد الله : لآجبه عن كلامه .
فقال عبد الله بن عمر وقال :

أن أمير المؤمنين لما أراد تفصيل برده لم يكهه ، فخلولته من بردى ما تنبه به .

فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

ولعل فى حادثة ابن عمرو بن العاص المعروفة بحادثة (ابن الأكرمين) مظهرا آخر من مظاهر عدالة عمر .

وكان عثمان بن عفان اذا قام للوضوء فى الليل تولى هذه العملية بنفسه ، فلما أشار عليه أصحابه أن يستعين ببعض خدمه فى ذلك أجلبهم بقوله : لا ، الليل لهم يستريحون فيه .

وعند ما جلس الخليفة الملهون يوما ليفصل فى قضايا الناس اناه رجل من عبلة المسلمين ليشكوه الى نفسه ، مدعيا أن وكيله قد اشترى منه جواهر لم يدفع ثمنها .

فقبل الملهون الخصومة ثم أرسل فى طلب القاضي ليفصل بينهما .

ويأى القاضي أن ينظر فى القضية وهو فى قصر الخليفة ، الا اذا سمح له بجعل قصره مجلسا لنظر جميع القضايا المعروضة فى ذلك اليوم قبل قضية الخليفة ، فسمح له الملهون بذلك .

وعند ما جاء دور الخليفة وقف بجوار خصمه ولم يجلس الا بعد أن أذن القاضي لهما معا بالجلوس .

وبعد أن صدر الحكم فى القضية لمصلحة الخليفة ، قلم المليون
(الخليفة) بمنح الرجل ثلاثين ألف درهم قتلا له :

انى أهب لك هذا المبلغ خشية أن يظن الناس انى ظلمتك ، وانتصرت
عليك بقوتى .

وفى اثناء موقعة « حنين » فقد على بن أبى طالب درعا له ، وعند
عودته الى الكوفة شاهد الدرع على يد رجل يهودى ، فطلبها منه ، فأبى
اليهودى ، مدعيا انها ملكه ، فصحبه على بن أبى طالب الى القاضي ،
الذى اطلع على قضيتهما ثم طلب من كل منهما اثبات ملكيته للدرع .

فقال على : الدرع درعى لم أبع ولم أهب .

وقال اليهودى : الدرع درعى وفى يدي .

فتوجه القاضي مخطبا عليا : ألك بينة يا أمير المؤمنين ؟

فأجابه على : نعم : قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى .

فقال له القاضي : أن شهادة الابن لاتجوز للأب .

فلم يتالك اليهودى نفسه ازاء صورة رائعة كهذه من صور العدالة
فسلم أمير المؤمنين الدرع ، وأعلن اسلامه .

هكذا كتبت أخلاق رجال صدر الاسلام ومعاملتهم : عدالة مطلقة
طبقوها ، تلبية لأحكام صريحة قاطعة من دينهم .

(خير الناس أفهم للناس)
« حديث شريف »

« الفرد للمجموع ، والمجموع للفرد »
« الثمنار العالي لتعلمون »

العائد في الجمعيات التعاونية جزء من الربح الناتج عن العمل
يُرد إلى المتعاملين الذين تسببوا في إيجاد هذا الربح بنسبة لمعاملاتهم .

وقد يرد هذا الربح كله أو جزء منه ، وقد يرد في نهاية العام ، أو
يُرد معجلاً في أثناء العام في صورة تخفيض لسمعة السلع أو تحسين
في نوعها ووزنها إذا قورنت بمثلتها في الأسواق غير التعاونية .

وتقدر المبلغ التي ردت إلى المتعاملين في لجانها على هيئة عقد
خلال الخمسين سنة الماضية بمبلغ ثلاثة بلايين من الجنيهات ، وذلك
يوضح مدى أهمية هذا المبدأ ، ذلك بأن هذه المبالغ تعتبر وفراً للمتعاملين
تعود إلى جيوبهم في النهاية لترفع مرة أخرى في قوتهم الشرائية .

والغرض — في الحركة التعاونية — ألا يرد الربح في صورة عقد
الابعد أن يستقطع منه مبلغ لاستخدامه فيما يسمى (بالمعونة الاجتماعية)
في لغة التعاونيين ، وهو ما يسمى بالمعنى الحديث (التكافل الاجتماعي) .

وهذا المبدأ من أهم المبادئ التي نادى بها الإسلام ووضع الأسس
العملية التي يمكن أن يقوم عليها ، وقد أتى تطبيقه بنتائج كلفت خير دليل
يثبت مدى قوة الجاذب الإنساني في الدعوة الإسلامية .

وقد اعتنقت الحركة التعاونية هذا المبدأ وجعلته بمثابة (زكاة) عن
تشغيلها .

فالتعاون لا يهدف إلى الربح ، وإنما يهدف إلى الخدمة . . والتعاون
لا ينظر إلى التشاغل الاقتصادي على أنه هدف بذاته ، وإنما ينظر إليه
كوسيلة لتحسين معيشة الذين يخدمهم .

والتعاون لا يهدف فقط إلى تحقيق مصلحة أعضائه وإنما يهدف أيضاً
إلى توفير الخير للجميع حتى يؤمنوا به ويلتفتوا حوله .

والواقع أننا نلاحظ ارتباطاً قوياً بين كل من (العقد) و (المعونة
الاجتماعية) .

فكثيراً ما يخصص للعائد أو جزء منه للاتفاق على تحسين الحالة

الجمعية للأعضاء المتضمين للجمعية ، كما قد يفيد أيضاً منه غير الأعضاء .

وكان تلاميذ « روبرت لوين » « وشارل فوربيه » وهما من رواد التعاون الأوائل يهتمون — فى المرتبة الأولى — برفع مستوى الحياة المشتركة أكثر من اهتمامهم بخفض أسعار السلع الاستهلاكية .
ويقول و . ب . وتكنز أنه :

ثمة جمعيات تعاونية تعتبر من أفضل الجمعيات وأكثرها معرفة بشئون العمل التعاونى ، تلك التى تعنى بملاحظة المبادئ الأساسية للتعاون . والنشاط التجارى بالنسبة لهذه الجمعيات ليس هدفا بذاته ، بل هو وسيلة لتحسين حياة الأعضاء الذين ينتمون إليها وكذلك أفراد عائلاتهم . وفى غالب الأحيان يشل جماعة من الأشخاص تتمدى هذا النطق .

وقد كتبت إحدى الطرق المتعارف عليها لدى الجمعيات التعاونية خلال القرن التاسع عشر — أن يسحب مبلغ من أرباح الجمعية لانفاقه على مساعدة الأعضاء الذين تنزل بهم إحدى كوارث المرض أو البطالة أو غير ذلك من المصائب العائلية ، ثم تكتفى بعد ذلك الجمعيات التعاونية لتفتيء فى بريطانيا مستشفيات لعلاج الأعضاء بالمجان أو بأجر معقولة ..

ولم تلبث المنظمات التعاونية أن تساقطت فى انشاء مؤسسات اجتماعية أخرى كجمعيات الإسعاف التعاونى فى بريطانيا ، وجمعية « الرعاية الاجتماعية » فى بلجيكا . وهذه الجمعية الأخيرة مكنتها اتساع أعمالها ونجاحها المطرد ليس فقط من دفع مساعدات مالية لأعضائها ، بل مكنتها من مضاعفة العناية بالمرضى أيضا ، فأنشأت مصحات للمصروفين ، ومركزا لمعالجة أمراض الروماتيزم ، وللاشخاص المسنين أنشأت (بيت الشيخوخة) والمرضى فى دور النقاعة أسست بيوتا للاستجهم على شواطئ البحر ، وبيوتا للراحة خاصة بالأطفال ، وقد جهزت بعض بيوت النقاهة والراحة على نحو يمكن من تأمين العلاج الوقائى للأطفال الضعفاء أو الذين هم عرضة لأمراض مختلفة .

وعند ما دخلت الحركة التعاونية بلجيكا كان أعضاؤها يعملون من انخفاض مستوى المعيشة فلأخذت الحركة التعاونية على عاتقها محاولة الارتقاء بهذا المستوى بشتى الطرق ، فقد كان للأعضاء المعطلين مثلا الحق فى الحصول على حصص يومية من الخبز بالمجان ، كذلك أخذت بعض الجمعيات فى صلب نظمتها — استقفا إلى مواردها وإلى حلجات

أعضائها - (منح الامومة) وانشأت عيادات للأطفال ومراكز للأشخاص الذين تقعدهم الشيخوخة أو غيرها من الأسباب عن العمل .

وفى فرنسا انشأت الحركة التعاونية الاستهلاكية فى عام ١٩٢١ مؤسسة (الطفولة التعاونية) وتدير هذه المؤسسة مراكز للراحة خاصة بالأطفال الذين يمكنهم فيها الاغادة من الشمس والهواء النقي . وقد انتشر اخيرا هذا النوع من المساعدة هناك بعد ان انشئت جمعية خاصة (للمساعدة التعاونية) تزيد ميزانيتها على ١٦٠ مليون فرنك ، ولها اثنا عشر فرعا فى مختلف مناطق فرنسا .

وفى كل من الهند والولايات المتحدة الامريكية تكثر الخدمات الطبية التعاونية حيث تقوم جمعيات تعاونية لتشمت خصيصا لهذا الغرض ببذل المساعدة للمرضى والنكتهين .

وفى سويسرا اهتمت الحركة التعاونية بانشاء مؤسسة خاصة بإبشرة التطور الاجتماعى فى المناطق الفقيرة أو المتخلفة ، وخاصة فى المناطق البعيدة عن الجبال .

وهذه المؤسسة تمويلها اعطت مستمدة من (اتحاد تعاونيات الاستهلاك) ومن الجمعيات التعاونية التابعة له .

وتتناول جهود هذه المؤسسة اجراء اختبارات فنية وتأمين على الثروة الزراعية ، وتنظيم اوقات الفراغ ومد انابيب المياه ، وتحسين حالة المواطنين الصحية ، وشق الطرق ، وبناء المدارس فى القرى ، وما الى ذلك من مختلف المشروعات العلية .

وفى إيطاليا وجدت تعاونيات (رانين) التى رصد لاعمالها بمبالغ ضخمة ، ساهمت بها الجمعيات التعاونية العتمة ، وتقوم هذه التعاونيات بمنح الاعطت لمستحقها وانشاء مراكز استجلم للأطفال على شسلىء البحر وفى الجبال ، وبمساعدة الامراء فى حالتى المعجز والوفاء ، كما تنفق على مختلف الاعمال الثقافية والخيرية .

وقد تتفاهن الجمعيات التعاونية للمساعدة فى تخفيف اثر الكوارث التى تحدث خارج حدودها ، وقد حدث ذلك عند وقوع فيضان هولندا الشهير ، وكذلك عند وقوع فيضان نهر (البو) .

وهكذا تشكل الحركة التعاونية مساهمتها فى النهوض بالمجتمع طبقا لمتطلبات الظروف والأحوال التى تحيط بهذا المجتمع .

والدعوة الإسلامية عندما نالت نبذاً (المعونة الاجتماعية) . انما
كانت تضع اعظم أسس ملأت عليه الحركة التعاونية .

وعندما نستعرض هذا المبدأ في الإسلام لا يسعنا الا ان نبدا بكون
أسس متين وضعه الله لتثبيت هذا المبدأ ، حيث جعله بشكل ركنا من اركان
الدين الخمسة ، ذلك الأسس هو : الزكاة .

والزكاة في نظر الإسلام ان هي الا تطهير للمال الذي تخرج منه
تطهير له من تبعة الحق الذي جعله الله فيه للمساكين :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم » .

« وسيجنبها الاتقي ، الذي يؤتي جاله يتزكى » .

ونظرة الإسلام للزكاة هي نظرة التعاون الحديثة للمال والمعونة
الاجتماعية نفسها .

فالإسلام على الرغم من اقرار حق الملكية الفردية ، ينظر الى الفرد
باعتباره وكيلا في هذا المال عن الجماعة ، لان المال في عبوه انما هو
ملك لتلك الجماعة ، كما انه لم يدخل الى خزائن الفرد الا بتعاون أسهم
فيه عدد من افراد هذه الجماعة ، ومن هنا يترتب للجماعة بهذه الصفة حق
بؤكد فيه :

(وفي أموالهم حق معلوم للمساكين والمحروم) .

(وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل) .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم العقوبة التي تنتظر الغنى الذي
لا يؤدي هذا الحق :

(عرض على أول ثلاثة يدخلون النار : امير مملو ، وذو ثروة من
مال لا يؤدي حقه ، وفقير فخور) .

والإسلام ينظر الى المال على انه ملك لله قبل كل شيء .

(آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

« وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » .

« وما يكمن من نعمة من الله »

وهكذا فرض الإسلام الزكاة التي يمكن ان نسميها بلفة التعاون
(علما يصرف للمعونة الاجتماعية) ، فهي علما لاتها عبارة عن رد لجزء

من الدخل الى الجماعة التي أسهمت في ايجاد هذا الدخل ، وهذا المائد
يصرف للمعونة الاجتماعية بقرار محدد من الله سبحانه وتعالى :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فلان لله خمسة وللرسول ولذي القربى
واليتامى والمسكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا
يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

وكان خمس غنائم الافراد يقسم ايلم الرسول صلى الله عليه وسلم
خمس اقسام توزع طبقا للآية الكريمة .

وقد استفتى الخليفة هارون الرشيد الفقيه « ابا يوسف يعقوب
الأنصاري » في هذا الشأن فاجابه (بالتوسع فيما يشمل هذا الخمس بجعل
الغنمية كل ما اصيب من المعادن من قليل او كثير . والركاز - وهو الذهب
والفضة - الذي خلقه الله في الارض يوم خلقت ، والكنوز العلية التي
تصاب في غير ملك احد ، وما اخرج من البحر من الحلى والعنبر ، كل
ذلك حكمة واحد . وهو ان لبيت المال خمسة ، اما اربعة الاخماس الباقية
فتكون حقا لاصحابها) .

ولم يكف الاسلام من مال الفنى بالزكاة المفروضة ، بل اوجب عليه
ان يساهم في المشروعات العلية التي يقوم عليها امر الأمة ويصلح به
حالتها ، كما حبيب اليه الاتفاق في سبيل الخير وطرق البر المتنوعة ، مبينا
له ان كل مبلغ ينفق في هذا السبيل انما هو قرض الله عظيم الربح :

« وافرصوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير نجوه
عند الله هو خيرا واعظم اجرا » .

« وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » .

« يحق الله الربا ويرى الصدقت » .

وقد حدد الله موعدا مناسبا لرد هذا القرض :

« يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود
او ان بينها وبينه أمدا بعيدا » .

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم الناس اجمعين الى عمل الخير
الذي يعود بالنفع على الناس اجمعين :

(احب الناس الى الله اتفهم لعياله) .

(خير الناس اتفهم للناس) .

الاما أثمد اقتراب التعلوتين من الفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام عندما وضموها تعبيرهم العالى عن المبدأ الذى اتخذه شعرا لهم .

(الفرد للمجموع ، والمجموع للفرد) .

وقد كفت ثروة أبى بكر يوم اسلامه تقدر بأربعين ألف درهم ادخرها من ربح تجارته ، وبعد اسلامه واصل تجارته وربح منها ، وعلى الرغم من ذلك مات لما هاجر الى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم ، فلما سأل ملكان عنده فقد اتفقوا فى سبيل الدعوة لله ولرسوله ، كما افتدى بجزء منها الضعفاء والارقاء الذين أسلموا فعذبهم سلاقتهم لاسلامهم .

والاسلام — كما رأينا فى التعلون — يحرص على وصول السلع والخدمات الى مستهلكيها جيدة فى نوعها ، سليمة فى وزنها ، وهذا هو مظهر الحركة التعاونية نوعا من المعاد .

فالاسلام ينهى عن التطفيف فى المكيل والميزان ، او الانتقاص من أجر العمل :

« فاولفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشيائهم (١) » .

وهو يهدد من يخالف هذا الأمر ويعده بعذاب شديد :

(ويل للمطففين ، الذين اذا اكتلوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون ، الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) .
وفى الحديث القدسى :

(ثلاثة أنا خصمهم : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فاكل ثمنه ، ورجل استأجر أجرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره) .

وفى الحديث الشريف : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »
والاسلام يحرم الغش فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« البائعان بالخيار ما لم يتفرقا . فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

(١) سورة الأعراف من آية (٨٤) .

ولما كان الاحتكار يفتح الباب لالم الغش فقد نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

(من احتكر فهو خاطيء) .

(من احتكر طعنها أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه) .

وقد استجلب الاوان لهذه التعليمات وطبقوها حتى وصلوا في تطبيقها لحينا الى حد المبالغة : فقد حكى انه كان من العرب من كان ينصب الجفن الواسعة في عرض الطريق ويملؤها طعنها طيبا ليكل منها الناس .

وكان عبد الله بن جدهان النبي يفعل ذلك . وورد في (التاموس) (وربما كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم طعنها) .

وكانت لعبد الله هذا جفنة يكل منها القائم والراكب على البعير ، وقد سقط فيها يوما صبي ففرق ومات .

وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (كنت استظل بظل جفنة عبد الله بن جدهان) .

وها هو ذا أحد أئمة المسلمين يضرب لنا امثلة في تطبيق رسالة الدين على التجارة : ذلك ان ابا حنيفة جميعين التعمق في الاسلام والتعمق في فن التجارة ، فلشاهد اذن صورا من نتائج تطبيق هذه التجربة الفريدة :

جاءت الى دكان ابي حنيفة امرأة عجوز تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسنها ان يرفق بها في الثمن ، فقال : دونك هذا الثوب يا اماء .

قلقت : يكف ؟ قال : بأربعة دراهم .

فلم تصدق المرأة هذا الثمن البخس وقالت له : لا تسخر مني ، فقال ابو حنيفة : انه لكنك ، لقد اشتريت ثوبين فبعت احدهما بالثمن كله الا أربعة دراهم ، وهذا هو ما اطلبه منك ثمننا للثوب البقي .

وكان من مبادئه لشدة حرصه ان يتجنب الاعلان عن بضاعته حتى

لا يؤثر رأى المشتري الى حد انه عنما اتى الى محله احد المشتريين طالبا شراء ثوب من الخز قال لابنه : يلحد اخرج ثوبا .

فأخرج حماد الثوب ، ونشره قفلا بلهجة فيها الكثير من المباهاة بالثوب : « صلى الله على محمد » . فقال ابوه : مه . قد مدحتك .

ورفض ان يبيعه الرجل .

وكان أبو حنيفة شريكا مع حفص بن عبد الرحمن ، فترك له المحل ذات مرة بعد أن أعلمه أن في أحد الأبواب عينا كى يظهره للناس ، غير أن حفصا قام ببيع الثوب واستوفى ثمنه بالكليل كما لو كان غير مبيع ، فغضب أبو حنيفة إلا أن يكلف شريكه البحث عن المشتري لاطلاعه على الحقيقة ورد الفرق اليه ولما لم يهتد حفص الى المشتري أبى أبو حنيفة إلا فصلا من شريكه ، وتصدق بنصيبه في ثمن الثوب .

وكان أبو حنيفة ينصف البائع كما ينصف المشتري منه ، فقد جاءه رجل يبيعه ثوبا ، فقال له : بكم ؟ قال له الرجل : بكذا ، قال أبو حنيفة : انه يستحق أكثر ، وظل يزيده حتى وصل الى الثمن الذى يراه أبو حنيفة عادلا .

وثمة مثل آخر لأحد مفكرى الاسلام الاقتصاديين : فلكم هو ابووزر الخفارى الذى تزعم في زمنه دعوة الاشتراكية الاسلامية ، فطالب الاغنياء بعدم اكتناز الذهب والفضة ، وبالاتفاق منهما على الفقراء وعلى المصلحة العامة للمسلمين .

وعندما رأى معاوية منه ذلك استعمل الحيلة للقضاء عليه ، فأرسل اليه رسولا تحتجج بالظلام ومعه كيس فيه ألف دينار ليعطيه اياه ، وفي الصباح أوفد اليه معاوية الرسول مرة أخرى وقال له : اذهب الى أبى زر ، فقل له : لقد جسد من عذاب معاوية ، أرسلنى الى غيرك وانى أخطأت بك فلما قال ذلك لأبى زر أجابه : يا بنى قل له : والله ما أصبح عندي من دنقيرك دينار ، ولكن أخرجنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها .

فعلم معاوية انه اتفقها على الفقراء عقب تسليمها ولم يبقها في داره ليلة واحدة .

وهكذا نرى أن الاسلام قد أضاء للبشرية طريق (التكفل الاجتماعى)

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تدامى له سقر الجسد بالسكر والحوى » .

البيع بالنقد

« الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى
ينخبطه الشيطان من المس » .
« قرآن كريم »

(ان التعامل نقداً فضيلة من اكبر الفضائل
وهو خير ما ترمى اليه الحركة التعاونية لان
الاستدانة مذلة ومهقمة ، والمشتري بالاجل من
السوق لا يتخبر من السعر الذى يملى عليه من
البتل او الخبز او الجزار ولا من الوزن او الصنف
الذى يفرضه عليه البائع ولا يستطيع ان يتحرر
من التعامل معه ويتركه الى غيره وهو يقبل منه
ذلك راضياً او كارهاً والا لقلل حسابه معه ،
ويستمر هكذا حتى يتردى فى لوضاع وابتهلكت
جالية لا يجد منها خلاصاً الا بان يفر خلسة من
منزله ومن الحى الذى يقيم فيه) .

شارل جيد — التعاونى الفرنسى

ان دعوة لا تقصر رسالتها على شئون الأمم والأفراد الخلقية
والمعنوية ، بل تتمدى ذلك الى معالجة الشئون الاقتصادية لهؤلاء الذين
توجه اليهم — مثل هذه الدعوة يكون من الطبيعي لها أن تجعل من مبادئها
التي تركز عليها في تبليغها مبادئها ، وهو مبدأ :

(التعامل بالنقد) .

وهكذا دعت اليه الرسالة المحمدية ، وهكذا تمسكت به الحركة
التعاونية .

وهذا المبدأ يهدف الى حملة العضو من الاستدانة ، وما يتبعها من
مسائل تلازم حياة الأفراد ، كما تهدف الى المحافظة على ميزانية هؤلاء
الأفراد من الإرهاق ، وكذلك تهدف الى الحيلولة بينهم وبين تكليف
انفسهم مالا تطيق .

وانه — وان كثرت اساليب الحياة الحديثة بما فيها من مطالب كثيرة ،
ومتجددة وسريعة التغير ، مما أبعد التعاون في بعض اوجه نشاطه عن
ممارسة هذا المبدأ ، وخلصه بعد ظهور اساليب جديدة في معاملات
الناس التجارية كاسلوب البيع بالتقسيط — لا يمكن ذلك أن يمنعنا من أن
نناقش هذا المبدأ ونبين مزاياه التي مازال أغلب التعاونيين يعتبرونها من
أهم مزايا الحركة التي يدعون اليها .

كما يرى كثير من المفكرين أن في التخلي عن مبدأ التعامل بالنقد
خروجا عن التعاون الحقيقي واتباعا لاحدى الرذائل الناتجة عن المدنية
العصر الحديث .

فالجمعية التعاونية ليس من رسالتها زيادة المبيعات بقدر ما هو
من رسالتها المحافظة على سلامة القوة الشرائية الحقيقية لأعضائها مع
عدم تحميلهم اعباء فوق طاقتهم ، وذلك سواء فيما يتعلق بزيادة كمية
المشتريات وتبسيطها ، أو بملفحة فوائد على ائتمان البضائع المباعة بالاجل .
نفطرد الذي يعتاد عملية الشراء بالاجل انما ينزل بهذه العادة —

كلها أو مختلرا — عن جزء من حريته الشخصية فهو مضطر أن يتعامل مع تجار معين ، ذلك التجار الذى اتفق معه على التعامل بالاجل ، وهو مضطر أن يقبل السعر المفروض على السلعة التى يشتريها من هذا التجار ولو كان السعر مرتفعا ، وهو ايضا مضطر الى التخلي عن ميوه قد تكون فى السلعة التى يشتريها من هذا التجار بالاجل ، وأخيرا هو مضطر أن يبقى مدينا فترة قد تطول ، وقد يظل مدينا دينا مستمرا ، اذ ان الائتراض كغيره من المعدات لا يلبث أن يسيطر على الشخص الذى يملسه ، وربما لا يستطيع منه فكلا ، فيخرج من دين لكى يقع فى براثن دين جديد .

وتاريخ وجود هذا المبدأ فى الحركة التعاونية يرجع الى تاريخ الحركة نفسها .

فى عام ١٨٤٤ ورد فى المادة الثانية من قانون الجمعية التعاونية الاولى نص على : (أنه ليس لاي شخص الشراء بالنيابة عن الجمعية الا من خولته الجمعية ذلك الحق صراحة من المجلس والمؤجرين بالادارة ، وايس لاي منهم ابرام أية عملية بغير النقد ، وكذلك هم غير مسموحين بالبيع بالاجل فى أية حالة وكل من يخالف هذه المادة يجزى بغرامة قدرها عشرة شلنات ، ويفقد صفة العضوية للمنصب المختار له) .

كما نصت المادة (٢٦) من القانون نفسه على ان (تدفع اثمان البضائع المباعة للأعضاء فوراً فى اثناء تسليمها للمشتريين) .

وقد ثبت أن اتباع مبدأ التعامل بالنقد يساعد على ازدهار الحركة التعاونية .

فى سنة ١٨٤٧ قل اقبال العمال فى انجلترا على الاشتراك فى عضوية الجمعيات التعاونية ، وكان السبب فى ذلك راجعا الى أن اغلب هؤلاء العمال كانوا مدينين لتجار التجزئة دينا ادى الى ارتباطهم بهؤلاء التجار ، على الاقل حتى الانتهاء من دفع ديونهم ، وعندما ألف هؤلاء العمال مبدأ التعامل بالنقد اقبلوا على الانضمام للجمعيات التعاونية وزيادة اكتسابهم فيها .

على أنه لا يفوتنا أن ننبه فى هذا المجال الى أن مبدأ التعامل بالنقد لا يمكن أن يكون حلالا بين الجمعية التعاونية ومساعدة بعض اعضائها الذين قد تصادفهم ظروف غير ملائمة ، كالبطالة أو المرض ، أو غير ذلك من الكوارث ، وفى مثل هذه الحالات تشجع الجمعية التعاونية ان من واجبه

أن تتقدم لمساعدة هؤلاء الاعضاء لتمد لهم يد المساعدة بمنحهم قروضا
لأجل معين بدون فائدة غالبا لو بمنحهم ما يحتاجون اليه من سلع الجمعية
مع تأجيل دفع الثمن ، وبدون اضافة فائدة ما على اثبتتها الفعلية ، هذا
إذا لم تمنحهم هذه الجمعيات اعلقت تساعدهم على الشراء .

والاسلام الذى اهتم بمصالح الناحية الاقتصادية ، وتنظيم التعامل
بين الافراد لمصلحتهم ، والذى قرن المعاملة بالمصل الدين في حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم :

(الدين المعاملة) .

هذا الدين كان لابد أن ينادى ببدا التعامل بالنقد . . فبدأ بمعالجة
المشكلة من جذورها بأن أعلن الحرب على الربا الذى يعتبر قرين التعامل
بالأجل وأقننه :

« ياايها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين .
فان لم تفعلوا فلننوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رجوس
أموالكم لانظلمون ولا تظلمون » .

« يحق الله الربا ويربى المحققات » .

وقد ورد في جواهر البخارى عن سيرة ابن جنذب ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال :

(رأيت الليلة رجلين أتيا فأخرجني الى أرض مقدسة فطلقنا
حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه
حجارة ، فقاتل الرجل الذى في النهر ، فلذا أراد أن يخرج رمى الرجل
بحجر فيه فردة حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فيه بحجر فمرجع كما
كان فقلت : ما هذا ؟ فقال : الذى رأيته في النهر أكل الربا) .

(والذين اذا اتفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان
بين ذلك توازن) .

« قرآن كريم »

لما كتبت الحرية التعاونية تهدف الى تحقيق اكبر قدر من الرفاهية فلائسنان كان لابد لها من ان تلتزم السير على القواعد الكفيلة بتحقيق اكبر قدر من الوفرة والاقتصاد للمنتفعين بها في كل عمل يمكن ان يند الىه نشاطها .

ذلك ان كل مبلغ تقتصده الجمعية التعاونية انما هو في واقع امره وفر لمجموع اعضائها والمكسر ايضا صحيح ، فان كل اتفاق زائد تقوم به الجمعية انما هو بتخير في اموال هؤلاء الاعضاء .

ولهذا كان لابد للجمعية التعاونية التي تلتزم في سيرها الاسس السليمة للتعاون ، وتطبق مبادئه ان تجعل شعورها الاعتدال في الاتفاق سواء فيما يتعلق ببشورتها او بما تنفقه من مصروفات على تأسيس الجمعية او نائيتها وادارتها .

والجمعيات التعاونية ليست في حلجة الى (تزويق) او اعلان ، كما انها ليست في حلجة الى الدعاية لخدماتها ومنتجاتها ، ان الجمعية التعاونية انما انشئت برغبة وشعور بالحاجة اليها من اعضاء ساهموا في ايجادها ، وهم انفسهم الذين يقومون بالعمل معها دون حلجة الى دعاية او اعلان .

وغالبا ما يكون الدافع الاساسي لمجموعة من الاشخاص على ان تتعاون في انشاء جمعية مشتركة — هو رغبة هذه المجموعة في تحقيق وفر في تكاليف اداء العمل او الخدمة التي تجمعوا من اجل اداها .

وقد كان الدافع الى قيام الجمعية التعاونية الروتشدالية الاولى في عام ١٨٤٤ هو الفقر والرغبة في التظلم عليه .

في شهر نوفمبر من عام ١٨٤٣ اجتمع خمسة عشر عالما من عال النسيج البلجين بقرية روتشديل في لانكشير بإنجلترا ، بعد ان طردوا من اعمالهم بسبب انتشار الآلية في المصانع انتشرا دفعهم الى حلقة الفاقة واليؤس .

وتباحث هؤلاء العمال في الوسيلة المثلى التي يمكن ان تؤدي الى

تحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية لمواجهة هذا الموقف العصيب ، ولم يجدوا حلا لمشكلتهم اكثر ملاءمة لتحقيق هذا الغرض سوى اللجوء الى التملون .

وانتفى هؤلاء العمال فيها بينهم على ان يدفع كل واحد منهم — وكان عددهم قد زاد حتى بلغ ثمانية وعشرين عميلا — بنسبة اسبوعيا لتكوين رأس مال جمعيتهم التعاونية ، وقد كان الكثير منهم يتخلف مضطرا عن أداء هذا القسط في موعده ، حتى بلغ الاكتتاب ثمانية وعشرين جنينا في أكتوبر عام ١٨٤٤ .

وبهذا المبلغ الضئيل بذلت الجمعية التعاونية الاولى في مزاولة اعمالها : فقام الاعضاء باستئجار طابق ارضي في أحد المنازل المتواضعة ليكون مقرا لجمعيتهم ، واشتروا بما بقي من المبلغ كميات بسيطة من المواد الغذائية الضرورية لمعيشتهم اليومية مثل الدقيق والسكر .

وفي ليلة الافتتاح اجتمع جمهور كبير من التجار والصبية ليقذفوا هؤلاء العمال بنكفهم وسخريتهم من المحل الحقير والقالبين بناسيسه .

وكان يقوم بالبيع في ذلك المحل لحد الاعضاء كما يقوم زميل له بلمسك دفاتر وحسابات المحل .

وهكذا قام هؤلاء الاعضاء القليلون من البائسين ووضعوا بجمعيتهم الصغيرة نواة للحركة التعاونية ، ليس في انجلترا فقط ، بل ايضا في العالم بأسره .

وقد كان الاسلام حكيما عندما دعا الى هذا المبدأ ، فالاسلام لم يدع الى الاقتصاد الذي قد ينقلب الى نقيضه اذا وصل الى حد التقتر ، وانما دعا الى الاعتدال والحكمة في الاتفاق :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ويضرب لنا احكام الاسلام الاوائل اروع الامثلة في تطبيق هذا المبدأ والالتزام به في حكمهم لامتهم .

فما هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما دخل عليه عمر ذات يوم ، فوجده مضطجعا على حصير قد ترك اثرا في جنبه فنقل له :

« لا تتخذ لك فراشا وطينا لنا يا رسول الله ؟
فيجيبه عليه الصلاة والسلام :

(مهلا يا عمر . انتظنها كسروية ؟ انها نبوة لا ملك !) .

وهكذا حدد الرسول لية ميزة النبوة وأى فارق بينها وبين الملك
حدد عليه الصلاة والسلام هذا الفارق فى (الاقتصاد) .

والخليفة الاول أبو بكر ، عندما ترك تجارته ليتفرغ لشئون المسلمين
جعل له أصحابه من بيت المال ما يصلح به نفسه وعياله ، فلما رأى انه
مشترف على الموت لم يطلب نفسه لما أخذ من بيت المال ، بل قال :

ردوا ما عندنا من مال المسلمين فأتى لم أصب من هذا المال شيئا ،
وان أرضي التى يمكن كذا وكذا — للمسلمين بما أصبت من أموالهم .

وقد أوصى رضي الله عنه أن يكن فى ثوبين له كلن يلبسهما وقال :

كفونى فيهما ثلث الحى لحوج للجديد من الميت .

فأى مثل أروع لتمثيل قاعدة التوفير والاقتصاد من هذا البذا ؟

وكلن عمر اذا استعمل مهلا ، كتب له واشترط عليه لته :

(لايركب برزونا ، ولا يكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يخلق بلبه
دون ذوى الحاجات ، فان فعل فقد حلت عليه العقوبة) .

كما كلن يكتب أموال عياله اذا ولاهم ، ثم يقلسهم مژاد عليها .

وقد حدث ذلك مع سعد بن أبى وقلمص عندما ولاه على الكوفة ،
وحدث مثله مع عمرو بن العاص والى مصر ، فقد كتب عمر مرة اليه
ما معناه :

(انى قد خبرت من عمل السوء ما كفى ، وكتبتك الى كلب من
أقلقه الاخذ بالحق ، وقد أسأت بك ظنا .. ووجهت اليك « محمد بن
سلمة » ليتسبك مالك ، فأطلعه على ما يطلب ، وأخرج اليه ما يطلبك ،
وأعنه من الغلظة عليك فله برح الخفاء) .

وذهب اليه الرسول بهذه الرسالة ، فقلسها ماله .

وقد مثل يوما أحد الولاة بين يدى عمر ليحاسبه ، فلما رأى اخيه
مظاهر ثروة جديدة سألته عن مصارها وكيف آلت اليه فى أثناء توليه؟ .
فقال الوالى :

انى قد تلجرت فريحت .

نصارى عبر الثروة قتلا للوالى :

اننا والله ما ارسلناك للتجارة

ويقول الخليفة عبر بن الخطيب :

« انه لا يحل لمير من مال الله الا حلتان : حلة للشهداء ، وحلة للصيف ، وما احج به واعتذر ، وقوتى وقوت اهل كرجل من قريش ليس باغناهم ولا يافقرهم ، ثم اتى — بعد — رجل من المسلمين » .

وقد اشفق عليه بعض اولاده يوما فقال له : لو اكلت طمعا طيبا كان اقوى لك على الحق .

فقال لهم عبر : اكلكم على هذا الراى ؟

فاجابو : نعم .

قال عبر ما معناه : عليت نصحكم ، ولكنى وجدت صاحبى : الرسول وابا بكر ، على جادة ، فان تركت جالفتها لم ادركهما فى المنزل .

ودخل عبر على ابنه عاصم يوما فوجده ياكل لحما ، فسأله : ما هذا ؟

فاجاب عاصم : لقد اشتهيت اللحم .

فقال عبر : لوكلما اشتهيت شيئا لكنته ، كفى بالمرء ان ياكل كل ما اشتهى .

وروى ابن عبر كان يرتدى جبة مرقوعة ، وقميصا قد وصل مدد الرقاع بين كتفيه الى اربع .

وفى اثناء خلافته ، بل فى العلم الثلثين عشر من الهجرة ، وهو الذى يسمى علم الرمادة — اصطب الناس قحط شديد حتى ماتت مواشيهم جوعا .

ولتسم عبر الا يذوق سبنا ولا لبنا ولا لحما حتى تنفجر الحبال .
وفى احد الايام وصلت الى سوق مكة مكة سبن (اصفر من القرية) ووطب من لبن ، فاشترأها احد غلمان عبر باربمين درهما ، ثم اتى عبر فقال : يا امير المؤمنين قد اجر الله يمينك وعظم اجرى ، قدم اليوم الى السوق وطب من لبن ، وعكة من سبن ابتمتهما باربمين درهما ، فقال له عبر : تصدق بهما فلى اكره ان اكل اسرافا .

هكذا يضع واحد من حكم المسلمين قواعد مثالية لتفصيل هذا
«إبدأ التعاوني ، الاقتصاد والتوفير .

وعندما جاء الى عمر بن عبد العزيز ليبلغ خليفته ، احد اصحابه
ليكلمه في عطية قدرها عشرون ألف دينار ، كان قد أمر له بها أمير
المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وتوفى قبل أن تصرف له ، دخل الصديق
على عمر وقال له :

يا أمير المؤمنين ، ان أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لي بعشرين
ألف دينار حتى انتهت الى ديوان الختم ، ولم يبق الا قبضها فتوفى على
ذلك ، وإمير المؤمنين لولي يستلم الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم
ما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان .

فقال له عمر : وكم ذلك ؟

اجلب الرجل : عشرون ألف دينار .

فرد عمر بن عبد العزيز :

عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين وأدفعها
الى رجل واحد ؟ والله مالي الى ذلك من سبيل .

ولما بلغه ان بعض أولاده قد اتخذ خاتما واشترى له فصا بألف
درهم ، كتب اليه :

(أما بعد فقد بلغني أنك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه واشبع
به الفجائع ، واتخذ خاتما من حديد ، واكتب عليه « رحم الله امرأ عرف
قدر نفسه ! ») .

الفصل الثامن

العلانية

(وأمرهم شورى بينهم)

« قرآن كريم »

لامرية فى دعوة جماعية ، دعوة تخطب الصغير والكبير ، وتوجه الى الفقير قبل أن توجه الى الغنى ، وتفتح أبوابها للناس جميعا من كل لون وجنس .

لا سرية فى الاسلام ، لا سرية فى التعاون .

وهكذا تحتل « العائلية » مكانها فى الدعوة الاسلامية ، ثم تليه الحركة التعاونية لتتبعها كعبدا من مبعثها .

والعائلية فى الحركة التعاونية تعنى أن لكل فرد الحق فى أن يعرف كل ما يحيط بجمعيته من ظروف ومشاكل ، وأن من حقه ، بل من واجبه أن يشترك فى حلها .

وتطبق الحركة التعاونية هذا المبدأ بامانة فى قوانينها ونظمها ، فإن جميع القوانين التعاونية لا تخلو من النص على أنه لا يمكن النظر أو البت فى أمور الجمعية الهللة الا بعد دعوة الجمعية العمومية المكونة من جميع اعضاء الجمعية للنظر فى هذه الأمور ، وتقرير ما تراه .

ومن امثلة هذه الأمور الهللة حل الجمعية أو تصفيتا أو زيادة رأس مالها أو رفع حد المسؤولية الى غير ذلك من الأمور التى تمس شئون الاعضاء ومصلحتهم .

كما أن هذه القوانين والنظم تعطى العضو الحق فى الاطلاع على حسابات جمعيته ، ومناقشته بنود ميزانيتها السنوية مع المشرعين على ادارتها ، كما تعطيه الحق فى معرفة مدى الخسارة والسببها ، أو مقدار الربح وكيفية توزيعه .

والجمعية التعاونية تتبع مبدأ العائلية فى مشترياتها ومبيعاتها وفى تجبيع المعلومات اللازمة لمباشرة عملها .

كل ذلك برغم أن المشروعات المالية والتجارية كثيرا ما تجعل الائتواء والسرية جزءا من طبيعتها ، ولكن التعاون لا يعترف بهذا الاسلوب فى عمله لأن الاخفاء قد يكون ستمارا يؤدى الى التنفية والرشوة ، ومن ثم الى الاضرار بالمشتركين ، وفى الظلام يمكن أن يتم أى شيء .

ولما كثرت الجمعيات التعاونية المحلية كثيرا ما تتجمع لاقابلة هيئات تعاونية اعلى فى كل دولة ، وهذه الاخيرة تتجمع لتكوين منشآت تعاونية دولية ، فلنا لذلك نجد ان العضو التعاونى الصغير المشترك فى جمعيته المحلية له صوت مسموع ، يسير مع التشكيل التعاونى حتى يصل فى تأثيره الى النطاق التعاونى على الصعيد الدولى ، اذ ان هذا العضو له الحق فى كل هذه المراحل ان يعرف ويدرس ويدلى بكل ملحق له من آراء.

وعندما نص الاسلام على الشورى فى قوله تعالى « وشاورهم فى الامر » انما كان يضيف بذلك الى مبادئ الدعوة مبدءا لا غنى لها عنه وهو مبدءا (العائلية) .

وقد انطبعتم تصرفات حكم المسلمين فى صدر الدعوة الاسلامية حيال رعيتهم بهذا المبدأ .

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكف عن استشارة أصحابه فى كل مايتعلق بأمر المسلمين الدنيوية تطبيقا لشعاره المعبر عن هذا المبدأ : (اتقوا الله فى دنياكم) .

بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم كون ما يمكن ان نسميه بلغة التعاون الآن (مجلس ادارة) لجامعة المسلمين ، وكان هذا المجلس فى تكوينه يدل على اختيار دقيق ، اذ انه جاء ممثلا لطوائف الامة الاسلامية فى ذلك الوقت .

ويحدثنا السيد / محمد كرد على فى كتابه عن (الاسلام والحضارة العربية) :

ان الرسول عليه الصلاة والسلام ما انفك عن استشارة أهل الرأي والبصرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبثوا عن قوة إيمان ، وتغلان فى بث الدعوة الإسلامية ، وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حنيفة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وسليمان ، وعمر ، وحنيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال ، وقد سموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول اسلام قومهم .

ومن جهة اخرى نشاهد قوة ايمان الرسول صلى الله عليه وسلم بمبدأ العائلية فى واقعيتين سبق ايرادهما بهذا البحث :

الأولى — عندما كتب الرسول معاهدة مع المشركين على منحهم نصيبا من ثمار المدينة لقاء رجوعهم عن حصارها ، ثم ملكن من الفاء هذه

المعاهدة قبل توقيعها بعد أن استشار الرسول أصحابه في أمرها
ومعارضتهم لها .

والأخرى — أيلم أحد ، عندما خضع الرسول للرأي الذي اشرت
به الاغلبية ، وكان يقضي بالخروج لحرب المشركين برغم معارضة هذا
الرأي لرأيه الاصلى .

كما يتجلى ذلك الايمان أيضا يوم بدر ، فعندما اتى رسول الله صلى
الله عليه وسلم الخبر عن سير قريش دعا (الجمعية العمومية) للمسلمين
حيث طرح على أعضائها الأمر ليجتوه ويدلوا فيه برأيهم .

وقلم أبو بكر الصديق فقتل وأحسن ، ثم قلم عمر بن الخطاب فقتل
وأحسن ، وتبعه المقداد بن عمرو فقتل ما معناه : يا رسول الله ، امض
لما أراك الله فنحن معك ، والله لا تقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى :
« اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون (١) » ، ولكن اذهب أنت
وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون .

وهنا اتجه صلى الله عليه وسلم الى جمهور المسلمين من الاتصال
طلبا رايهم بقوله : اشيروا على ايها الناس .

وهكذا استمرت المناقشات حتى استقر رأى القوم على الخروج
للاقاة العدو .

وهنا يبارك الرسول عليه الصلاة والسلام هذا القرار بقوله :

(سيروا وابشروا ، فان الله تعالى قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله
لكئنى الآن أنظر الى مصارع القوم) .

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى مقدما خبر النصر ثم يكتبه
حتى ياتى قرار الناس خاليا من أى تأثير ، أو ان خبر النصر المجل لم يات
صلى الله عليه وسلم الا بعد اتخاذ هذا القرار ببلركة للشورى وامتداحا
لها ؟ .

كلا الأمرين يسمو ببدا العائنية في الاسلام ويدعمه .

ويسير الجيش الاسلامى على بركة الله وهدية الى بدر حتى اذا
اقتربوا من بدر ، اختار عليه السلام لتقرب مورد ماء ليمسكروا حوله ،

(١) سورة المائدة من آية (٢٤) .

فيقوم واحد من أفراد ذلك الجيش الإسلامي وهو الحلب بن المنذر ابن الجوح. لينقلش الرسول في الأمر قتلا :

يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ؟ لمنزلا أنزله الله ، ليس لنا ان نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال الحلب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فنهض بآنس حتى نأتي أخنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور ملوراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنبلاه ماء ، ثم نقتل القوم ، فنشرب ولا يشربوا .

فأجبه صلى الله عليه وسلم : لقد اثرت بالرأي .

وأمر الرسول جيشه فنهضوا جميعا ونفذوا الخطة التي ائتمسروا عليهم بها الحلب بن المنذر .

وأكثر من ذلك نجد ان كثيرا من الأمور المتعلقة ببعض جوانب الدين قد أتت ثرة للشورى ، ومن هذه الأمور (الأذان للصلاة) الذي جعل منه الاسلام شعارا ينبه المسلمين الى حلول وقت وجوب الصلاة .

فقد كان المسلمون بعد الهجرة يجتمعون في المسجد للصلاة دون ان ينادى بها أحد منهم ، فتشاوروا في ذلك وقد زاد عددهم فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل النصارى ، وقال آخرون : اتخذوا بوقا مثل اليهود .

فقال عمر : أولا تتبعون رجلا ينادى بالصلاة ؟

فقال الرسول : يبلال ، ثم غناد بالصلاة .

فكان بلال اذا جاء وقت الصلاة ينادى : الصلاة جامعة .

وكان من التابعين عبد الله بن زيد الأنصاري ، فبينما هو بين النقم واليقظان اذ رأى شخصا يلقنه الأذان ، فحضر الى الرسول وقص عليه ما رأى .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : انها لرؤيا حق ، لكن ذلك بلالا غفلة أتدي صوتا .

ولما اذن بلال حضر عمر بن الخطاب يجر رداءه قتلا : والله لقد رأيت مثله يا رسول الله .

وكثيرا ملكن عمر بن الخطاب يرى الراى فينزل به القرآن ، وكما
قال على بن أبى طالب : ان فى القرآن لرايا من عمر .

من ذلك ، أنه لما أئسل عمر على الرسول صلى الله عليه وسلم
بمخاض معلم ابراهيم مصلى ، نزلت آية بهذا الراى .

وكذلك عند ما اقترح وضع الحجاب على نساء النبى ، وعندما تولى
عبد الله بن أبى . . أحد اعداء الرسالة الإسلامية ، ودعى الرسول للصلاة
عليه ، فقام اليه ، فاعترض عمر طريق الرسول ، مشيرا عليه بعدم اداء
الصلاة عليه ، فنزل الوحي بقوله تعالى : (ولا تصل على أحد منهم مات
لبدا . . . الآية) (1)

كما كان أبو بكر فى كثير من الأمور التى تقابله فى أثناء خلافته ،
يمسح الى المنبر ليعرض هذه الأمور على جمهور المسلمين مستشيرا اياهم
فى معالجتها ، ومكونا بذلك ليسيه التعاونيون الآن «بالجمعية المصوية»
التي راينا أن الرسول قد سبق بتكوين مظهرها ، كما كان أبو بكر فى أمور
أخرى يعتقد مايمكن أن نسميه أيضا مجلس ادارة للجماعة الإسلامية ،
وكان هذا المجلس مكونا على الاساس الذى وضعه الرسول ، فكان يجمع
بين افراد من المهاجرين والأنصار ، وكان من بين اعضاء هذا المجلس عمر ،
وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب ،
وزيد بن ثابت .

ويروى ميمون بن مهران : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر
فى كتاب الله ، فلن وجد فيه ما يقضى بينهم قضي به ، وان لم يكن فى
الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنة قضي
بها ، فلن اعياه خرج فسال المسلمين وقال : اتلقى كذا وكذا فهل علمتم أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قضي فى ذلك بقضاء تقريبا اجتمع اليه التفر
كلهم فيذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء ، فيقول أبو بكر :
الحمد لله الذى جعل غينا من يحفظ عن نبينا . فلن اعياه أن يجد سنة
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمع رعوس النفس وخيلهم ،
فاستشارهم فلن اجمع لهم على رأى قضي به .

بل ان تولية أبى بكر نفسه للخلافة لم تتم الا بعد مشاورات
ومناقشات طويلة ، اشترك فيها المسلمون بأرائهم حتى استقروا على
القرار الاصوب ، فاجمعوا عليه .

(1) سورة التوبة من آية (٨٥) .

وعلى الرغم من أن ليا بكر قد اختار عمر ليكون خليفة له ، فقه لم يخرج في ذلك عن مبدأ الثموري ، بل كان أميناً عليه ، ملتزماً إياه ، ذلك أنه لما حضرته الوفاة تلم غائثرف على الناس وقتل : أيها الناس ، انى قد عهدت عهداً ، أفترضون به ؟

فقال الناس : رضينا لخليفة رسول الله . . فقام على فقال :

لا فرضي إلا أن يكون عمر ، قال أبو بكر : فقه عمر .

وعند ما تولى عمر الخلافة اتبع الطريق الذى أضاه الرسول وسار فيه الصديق ، فكان في كثير من الأمور يعقد (جمعية المسلمين العمومية) بالمسجد ليسال الناس آراءهم ، وإذا ما أسفرت مناقشات هذه الجمعية عن رأى يخالف رايه فقه كان يأخذ الرلين ليعرضهما على (مجلس شوراه) المكون من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه .

وعند ما قدم أبو هريرة على عمر بن الخطاب من البحرين حليلاً معه خمسمائة ألف درهم كان أول مفكر فيه عمر هو أن يلجأ الى استشارة جماعة المسلمين في أمر هذا المبلغ ، وكيفية التصرف فيه نجمعهم بالمسجد ، وصعد المنبر وقال :

أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا كيلاً ، وإن شئتم أن نعد هذا . .

فأشار عليه بعض المسلمين من جلبوا بلاد الفرس والروم أن يدون الدواوين بأسماء الناس ، ويوضح قرين كل اسم نصيبه من هذا المال .

واتبع عمر هذا الرأى ، وأمر بتنفيذه ، فأنصبت جميع القبائل الحربية ووضعت السجلات في سننابق كبيرة ثم بدأ عمر في توزيع المبلغ طبقاً لهذه السجلات .

وعندما حضرت عمر الوفاة لم تصرفه عن ذلك المبدأ الذى التزمه طوال حياته ، فكان مجلساً للثموري لانتخاب الخليفة الذى يليه .

وقد تكون هذا المجلس من : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزيبر بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر .

وقد ظل هذا المجلس منعقدا للتشاور ثلاثة ايام ، واسفرت مناقشته من حصر الخلافة في واحد من اثنين هما : علي وعثمان ، واستحكم الخلاف عند هذه النقطة ، فما كل منهم الا ان لجئوا الى جمعية الاسلام العمومية التي انعقدت بالمسجد ورفعوا اليها الامر للفصل فيه ، وانتهت مناقشت هذه الجمعية ببليعة عثمان .

وقد اتخذ عثمان بن عفان في اول خلافته مجلسا للشورى من بين الأشخاص الذين اعتد عليهم أبو بكر وعمر من قبله .

ولم تنطئ شعلة هذا المبدأ بوفاة الخلفاء الراشدين ، وانما ظلت هذه الشعلة متقدة تضيء بقدر رموخ ايمان من يتلقفها من الحكم .

وهاهم اولاء صنوة من الخلفاء وحكام المسلمين يجعلون من العالاية مبدءا لهم يدينون به ويلتزمون اتباعه :

فعمير بن عبد العزيز منذ كان واليا على المدينة لم يكن يقطع امرا بدون استشارة ، وكان قد كون مجلسا من الفقهاء حدد لهم مهمتهم في ان يبينوا له زلاته ، اذا راوا منه ذلك او سمعوا .

وكذلك كان مروان بن الحكم في ولايته على المدينة يجع اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه .

واذكر معلوية بن ابي سفيان فوائد الشورى ، فما كان يصدر في المهمات الا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعي ان يأخذ بأراء اشراف القوم وينزل على حكم ونود البلاد ، وكثت له مجالس يعقدها في المسجد مع جهور المسلمين تدور بحوثها حول سياسة البلاد وحكمها .

وفي عهد المقتدر جاءه قوم من زارعي فرس يشكون من مطالبتهم بتكيلة جبلة الخراج الذي كان مطلوبا منهم ، على الرغم من ان فريقا منهم قد هاجر عنهم بعد تقدير قيمة هذا الخراج ، وطلبوا ان يتحولوا بنصيبهم هم لغير .

فراى المقتدر ان هذه المشكلة تتعلق بببدا ، وان الفصل فيها يحتاج الى المشورة ، فطلب التفتة والفقهاء ومشليخ الكتاب والعمل والقواد ، حيث اجتمعوا جميعا في دار الوزارة وطرح عليهم المقتدر هذا الموضوع لبحثه ، فاقسموا فيه الى فريقين ، وتناظر الفريقان ، حتى انتهى الاجتماع الى قرار ببطلان التكيلة .

وقبل أن نختم هذا الفصل من بحثنا ، لايفوتنا أن ننوه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع إلى اتباع مبدأ العنصرية فقط ، ولم يكتب بأن تكون تصرفاته قدوة أن يأتي بعده من الأحكام وإنما تولى بنفسه تدريب عدد من تولوا أمور المسلمين بعده .

نقد رأينا أن من بين الذين دربوا في مدرسة الرسول أبو بكر ، وعمر .

كما كان عمر وعثمان وعلى أعضاء في مجلس الشورى الذي كونه أبو بكر في أثناء خلافته .

الحرية

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم
أحراراً)

« عمر بن الخطاب »

(لقد ظل الاستعمار يناوئ الحركة التعاونية
المصرية والحركة التعاونية العربية في الوقت الذي
كان يكفح فيه الحركة التحريرية)

« حسين الشافعي »

والحرية شرط أساسي لنجاح أية دعوة تقوم على أساس من المنطق
والمعدل ،تهدف إلى خير الإنسان ورفاهيته .

والحرية إذا كانت مبدءا من مبادئ أية دعوة كانت دليلا على قوة
هذه الدعوة ، وعلامة على مدى ثقتها في نفسها وأن عقيدة أساسها القوة
والإرهاب لا يمكن أن تقوم لها قائمة ، فإن قلت كان مصيرها حتما إلى
الانهيار . .

وهكذا اتخذ الروتشداليون من الحرية مبدءا لهم ، ومنزل الطريقهم:
حرية التعاون في أن يعتقد أي دين أو أي مذهب .
وحرية في أن يعتقد الرأي السليبي الذي يتفق مع ميوله .
وحرية في أن يتعامل مع جميعه أو لا يتعامل .
وأخيرا ، حرية في البقاء عضوا بالجمعية أو الخروج منها .
كل ذلك في إطار من المحافظة على أصل الدعوة وكيانها .

وان تجارب الحرية التعاونية في مختلف الدول تثبت أنه لا يمكن
للتعاون أن ينمو ويزدهر إلا في جو من الحرية ، وأن فقدان هذا الجو يؤدي
به إلى الاختناق .

ان المعتدى الذي كان يسلب شعبا حرية ، كان يضيع دائما في
اعتباره أن يسلب معها روح الحركة التعاونية .

فهي الملقب : اضطهد هتلر الحركة التعاونية حينما وجد أن اتجاهها
الذي يمثل في الديمقراطية الاشتراكية يتعارض مع اتجاهه الاستبدادي ،
مقام هتلر بفرض الرقابة الشديدة على أعمالها وإصدار القوانين التي تحد
من نشاطها ، وتؤدي إلى تصفية جمعيتها ، كما قام بحل جميع إدارات
التوغير التابعة للجمعيات التعاونية المنزلية .

وعند قيام الحرب العالمية الثانية ، قلبت الجهات العمالية التابعة
للحركة النازية بالاحتلال الكثير من المباني والمصانع التي تملكها الجمعيات
التعاونية .

وعندما احتل الألمان هولندا حاولوا إخضاع الحركة التعلونية لسيطرتهم فأرغوا الجمعيات التعلونية على اقلية هيئة مركزية لإدارة الحركة التعلونية ، وكلفت هذه الهيئة تسير قيما لأوبرهم ، وبمجرد انتهاء الاحتلال الألماني لتلك البلاد اجتمع التعلونيون وقرروا بالاجماع حل هذه الهيئة ، واتلته مجلس أعلى بدلا منها يسير على الاسس التعلونية السليمة .

وفى فيلدا : وضع الاحتلال يده على كبر الجمعيات الناجحة بها .

وفى القمسا : قام النازيون بتشريد زعماء الحركة التعلونية وزجوا بالكثير منهم فى السجون .

وفى تشيكوسلوفاكيا : لاقت الحركة التعلونية الكثير من عنت الألمان الذين صادروا أرصدة الجمعيات التعلونية فى البنوك ، واستولوا على أكثر من ٤٠٠ متجر من متاجرهم ، كما قلوبا بقمير الكثير من الجمعيات التعلونية .

وفى ايطاليا : حدث تحت الحكم الفاشستى ما حدث فى المانيا .

وعندما اشتركت كل من المانيا وايطاليا فى احتلال يوغوسلافيا كفت النفاسة بين الدولتين تدور على القضاء على الجمعيات التعلونية وتصفيها .

كان هذا هو مبدأ الحرية ، كما دان به التعلونيون ، وهو المبدأ الذى لايزال لهم نبراسا حتى اليوم وسيظل كذلك .

لما مكان الحرية فى الدعوة الاسلامية ؟

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي »

لقد اثبتت الدعوة المحمدية والقوم تسيطر على عقولهم وانكرهم تقاليد بالية ، وعقد فاسدة توارثوها على مر السنين :

« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آئثارهم مهتدون » (١)

وبدا الاسلام عمله بإزالة هذا الفساد الذى جمده القرون الطوال .

وكان اعتماد الاسلام فى هذه المهمة على العقل ، فتجه اليه مخلصا لياه ، موضحا له الحقائق ، تاركا له حرية الاختيار :

(١) الزخرف آية (٢٢) .

« او لم ينظروا الى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » .

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدينى ربى لآكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما افلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » .

ثم يتجه الله الى رسوله ليبرز له هذا المبدأ ويؤكدّه :

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء »

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجعلهم بالتي هي أحسن » .

« فلما عليك البلاغ وعلينا الحساب »

ولم يكف الاسلام بحرية العقيدة ، بل ترك ارباب كل دين وما يدينون ، وقرر حماية الشعائر الدينية لغير المسلمين من اهل الذمة والمعاهدين وجعل لهم مطلق الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية فى معبدهم وكنائسهم ، وهدد كل من يحول دون قيلهم بذلك على الوجه الذى تقتضيه شريعتهم ويتطلبه دينهم .

وكفت اليهود التى يكتبها خلفاء المسلمين وامراؤهم لاهل الذمة تنص على تأمين اقلية الشعائر الدينية والحفظة على الكنائس والمعابد فضلا من شمول ذلك التامين على الانفس والاعراض والاموال .

بل لقد حدث ان دخل وفد من نصارى نجران مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وادوا صلواتهم فيه فى الوقت الذى كان الرسول يؤم فيه المسلمين فى صلاة العصر ، وعندها أبدى المسلمون دهشتهم انذاك ، قال لهم الرسول ما معناه : ان يتركوهم .

وعند ما فتح بيت المقدس اعطى عمر بن الخطاب اهله عهدا وميثاقا نص فيه على اعطائهم (الايمان لانتفسهم ، واموالهم ، وكنائسهم ، وسائر ملتهم . لانتسكن كنائسهم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا يكرهون على دينهم ولا يضر احد منهم) .

واكثر من ذلك اباح الاسلام للمسلم ان تربطه بغير المسلمة بن اهل

الذمة اقدس علاقة وهي علاقة الزواج ، وحرم على زوجها المسلم أن يكرهها على ترك دينها أو ينهاها عن اقلية شعوره .

وبعد سيطرة الرسول على مكة اعطى المشركين من قبيل مكة وغيرها عهدا بالآلا يصددهم عن البيت الحرام .. على الرغم من أن حالة الحرب كانت قائمة بينه وبينهم في ذلك الحين ، واستمر ذلك حتى نزل قوله تعالى :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

وبذلك حدد الله تعالى بهذه الآية أجلا معيناً للمشركين كي يأمنوا على أنفسهم في البيت الحرام .

كما امر الله تعالى بحسن معاملة غير المسلمين .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم وتسخطوا انهم ان الله يحب المقسطين »

واوصى الرسول صلى الله عليه وسلم في احاديثه بحسن معاملتهم ايضا :

(لهم مالنا وعليهم ما علينا)

(من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة)

(من كفف نبيأ حد له يوم القيامة بسيط من نار)

(تصدقوا على اهل الديان جميعها) .

وعند ما اعتدى ولد لعمر بن العاص على أحد النخيين وشكاه الأخير الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر بأن يقتص منه على الفور قتلا عيارته المشهورة :

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)

فإذا انتقلنا الى معالجة الاسلام للناحية الاقتصادية من الحرية تلك الناحية التي تخص معاملات الانسان وحقه في الملكية والتصرف ، وجدنا أن الاسلام قد ترك للفرد كليل حريته في هذا المجال ، متخذاً دور المرشد :

« وقل اعملوا فسمي الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (1)

(1) سورة التوبة ، من آية (105) .

« عليها الذين آمنوا لا تكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم » (١)

والاسلام ، كما لا يقل احتكارا للتجارة . لا يقبل — ايضا — احتكار! للجهود والخدمات ، بل يحفظ على الحقوق الشخصية للإنسان حتى في أشد الاوقات حرجا :

فعند ما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك ، كان يحدث ان يتخلف أحد الجنود عن الجيش في الطريق ، فيقولون يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام ، دعوه ، فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وهذا عبد الله بن جحش في أثناء خروجه على رأس كتيبة في مهمة حربية بناء على امر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه : قد امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضيء الى نخلة أرصد بها قريشا حتى أتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فليتناطق ، ومن كره ذلك فليرجع .

وعلى بن أبي طالب عند ما جاءه أهل إحدى الولايات معلنين ان بولانيتم نهرا يحتاج الى الحفر ، وان في حفره واعفته لهم خيرا

ثم طلبوا اليه ان يكتب للوالي ليسخرهم في احتفال هذا النهر ، فعزل منهم على احتفال النهر وكره منهم اقتراح التسخير .

ثم كتب على بن أبي طالب الى عامله قرظة بن كعب :

(أما بعد فان قوما من أهل عمك اتوني فذكروا ان لهم نهرا قد عفا ودرس ، وانهم ان حفروه واستخرجوه عبرت بلادهم ، وتقوا على كل خراجهم وزاد في المسلمين قبلهم .

وسألوني الكتاب اليك لتأخذهم بعمله ، وتجمعهم لحفره والافتقار عليه ، ولست ارى ان اجبر أحدا على عمل يكرهه فادعهم اليك : فان كان الامر في النهر على ما وصفوا فمن أحب ان يعمل فمعه بالعمل ، والنهر ان عمل دون من كرهه ، ولأن يعمروا ويقوا أحب الي من أن يضعفوا ... والاسلام) .

وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لم كلثوم بنت أبي بكر الى

(١) سورة النساء ، من آية (٢٩) .

اختها السيدة عائشة أم المؤمنين ، فلما فحخت عائشة لاختها في الأمر قالت : لا حاجة لي فيه .

فلما قالت لها اختها : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟

قالت : نعم . انه خشن العيش ، شديد على النفساء .

وهكذا. أعلنت رايها بحرية برفض الزواج من خليفة المسلمين .

وعندما جاءت فتاة الى الرسول صلى الله عليه وسلم ليقبله ان ليها قد اختار لها ابن عمها لتتوجه دون ان يلخذ رايها في هذا الاختيار غضب الرسول ، وموضها في رد هذا الزواج ما دامت لم تستأذن فيه .

وبعد ان حصلت الفتاة على هذا القرار المحدي بحقها في تقرير مضميرها بحرية ، أعلنت : لقد أجزت ابني في اختياره ، ولكني فقط أردت أن أعلم الناس أن ليس للأباء من الأمر شيء .

هذه الحرية التي غرس الاسلام بفرتها حتى جاءت الدعوة الثاقلونية لتتلف ثمرها البليغة ، هذه الحرية الاسلامية هي التي دفعت كراخ استاذ العلوم الاسلامية بمعهد هارتفورد الى أن يقول :

(ان الحرية الاقتصادية في الاسلام محمية من التورور التي وصفت الصور الغربية بها ، والاسلام يضرب بيد من حديد على أيدي المحتكرين والمتحكمين في الأسواق) .

(عليكم بالجماعة فاما بكل الذنب من الغنم
القلبية)

« حديث شريف »

(والامة قد تبني على الانفرادية ، فيسمى
كل فرد من ابنائها ليعمل من اجل نفسه ، ومن
اجل رفع مستواه .. ومثل هذه الامة ستكون
دائما ضلعة ، اما المجتمع الاشتراكي التملوني
فهو المجتمع الذي يشعر كل فرد من ابنائه بأن
عليه واجبا تجاه نفسه ، وان عليه واجبا تجاه
الآخرين)

« جمال عبد القادر »

ومبدأ الوحدة من المبادئ الهامة في التعاون ، فكما أنه يمكن القول
بأن الوحدة هدف من أهداف التعاون ، كذلك يمكن القول بأنهما من
أساليب وجوده .

فالواقع أن الوحدة لابد أن تكون ظاهرة ملازمة للحركة التعاونية
في جميع مراحلها .

فالفرد الواحد لا يمكن أن يكون جمعية تعاونية بمفرده ، وإنما تتكون
هذه الجمعية من أفراد متحدين يجمعهم غرض واحد ، يحققونه بوحدة
على وجه أحسن مما لو حاول كل منهم أن يحققه على انفراد .

ومن هنا كان لا بد من الوحدة لتأسيس اتحاد تعاوني ، فالجمعية
التعاونية الواحدة لا يمكنها أن تنشئ اتحادا تعاونيا ، وإنما لابد لاجتماع
هذا الاتحاد من وجود عدة جمعيات ترغب في تكوينه لتأدية عمل أو أعمال
لا يتيسر لكل منها أن تقوم به بمفرده .

والقول نفسه يمكن أن ينطبق على كل مؤسسة أو منشأة تعاونية .
فإن العمل الذي لا يمكن لأي فرد أن يؤديه ، يمكن أن يقوم به اثنين ، والأمر
الذي لا تستطيع الجمعية الواحدة أن تقوم به ، يمكن لأية مجموعة أن
تتعاون في أدائه .

ويقول الرائد التعاوني الأول وليم تومسون : (إن العمل مجموعات
من الأفراد ، كل ينتج حلقة أخيه) : أي أنه إذا أزيلت الحواجز بين هذه
الأفراد والمجموعات فسيتم فرد أو مجموعة منهم بحاجة .

والتعاون يهدف إلى إزالة هذه الحواجز لخير أعضائه جميعا ،
ولذلك كان من أهدافه إلغاء الوسطاء في كل نشاط يتجه إليه ، ومفرا
بذلك أرباحهم لتعود على التعاونيين أنفسهم .

وكما يقول وليم تومسون : (فليعمل كل أخيه : كونوا الموردين
الفعالين أحاجتكم كل للآخر ، كونوا المنتجين والمستهلكين والسلسلة
ولربل الأعمال) .

وثمة تعاوني آخر هو « وليم كنج » يصور لنا هذا المبدأ في قوله :

(ان الإنسان فى حيلته الاجتماعية لايحتاج الا لشئيين : اجر عمله وصديق مخلص ، فإذا كان ثالث لهما ، أمكنهم ان يتعاونوا معا فى اخذ مال ينفقون منه على مليعترض حيلتهم من طوارئ وكوارث وان يتعاونوا فى شراء حاجتهم بمسر معتدل ، واصبح فى مقدورهم ان يستغلوا وقت فراغهم فى انتاج سلع يتبادلونها .

فلو رغب عدد اكبر من الافراد ان يعملوا معا طبقا لهذه الاسس لتيسر لهم تكوين راس مال معقول ، ولأمكنهم اقلية متجر تعاونى تتوافر له اسباب البقاء ، حتى اذا ما كثر طلب اعضاء هذا المتجر على سلعة بذاتها أمكن انتاجها للمستهلكين) .

وهكذا أخذ التعاون ببدا الوحدة ، فلتحد الافراد ليكونوا جمعية تعاونية ، واتحدت الجمعيات لتكون اتحادات او جمعيات مشتركة قد تتحد بدورها لتكون اتحادا عليا للدولة .

بل ان الحركة التعاونية تتجاوز فى تطبيقها لهذا المبدأ حدود الدولة فتعتبرها مكونة الحلف التعاونى الدولى وغيره من المؤسسات التعاونية التى تضم الى عضويتها جمعيات تعاونية من دول شتى اتحدت جميعا لتبحث عن الخير المشترك لها ولأعضائها .

واذا القينا نظرة على الحركة التعاونية فى دولة من الدول .. ما وجننا هذه الحركة تحيد عن هذه الخطوط التى يتكون منها مبدأ الوحدة .

فى السويد : يشكل الافراد الجمعيات التعاونية الزراعية التى تتحد فى كل مقاطعة مكونة (اتحاد المقاطعة) وهذه الاتحادات تتجمع بدورها فى اتحادات نوعية على مستوى الدولة تبعا للأغراض التى تعمل من أجلها ، وفى السويد اثنا عشر اتحادا من هذه الاتحادات الوطنية النوعية وتكون هذه الاتحادات جميعا ما يسمى « الاتحاد العلم ، للزارعين السويديين) .

وفى الهند : كثيرا ما يحدث اتصال فى صورة ما بين جمعية استهلاكية بالمدينة وجمعية صناعية او جمعية زراعية فى القرية ، ويتم هذا الاتصال لمصلحة الجمعيتين فتقيد الجمعية الاولى من الحصول على حاجة اعضائها من المواد الاستهلاكية بأسعار معتدلة ، وتقيد الجمعية الأخرى من تسويق منتجات اعضائها دون تدخل احد الوسطاء .

وفى انجلترا : قد تتحد عدة جمعيات لانشاء معمل الألبان او مخبز كهربي كما تتحد الجمعيات الاستهلاكية مكونة الجمعية التعاونية للاتجار

بالجملة التي تمتلك ٢٦٠ مصنعا ، وتعمل في نحو مائتي مليون من الجنيهات .

وكذلك تتحد الجمعيات الاستهلاكية مكونة مؤسسة للتأمين على منشأتها وحياة أعضائها وعملها .

وفي إنجلترا أيضا يطبق نظام العضوية الشاملة للدولة الذي بمقتضاه يتصف العضو التعاوني بصفتين :

الاولى — صفته كعضو في جمعيته التعاونية .

والأخرى — صفته كعضو في الحركة التعاونية للدولة بأسرها ، وتتيح له هذه الصفة الأخيرة أن يتعامل مع أية جمعية داخل إنجلترا .

كما أن الحلف التعاوني الدواي الذي يتخذ من لندن مقرا له يضم الى عضويته جمعيات تعاونية من جميع انحاء العالم ، والهدف منه هو نشر الحركة التعاونية في العالم لتحل محل النظم القائمة في شتى نواحي الحياة .

وكان بفرنسا في سنة ١٨٩٠ اتحاد تعاوني يضم الى عضويته ستين جمعية تعاونية .

وفي بلجيكا : تتحد الجمعيات التعاونية مكونة فيما بينها جمعية عامة تقوم بممارسة أعمال الانتاج والتجارة ، ونشر الثقافة والتعليم التعاوني .

وفي القرويج : تقوم الجمعيات الاستهلاكية فيما بينها بتكوين جمعية للتجار بالجملة وتمتلك هذه الجمعية مطاحن للحبوب ومصانع لانتاج الصابون ، والزيت والشوكالاته والقمح والاحذية .

وفي فنلندا : اجتمعت اثنتا عشرة جمعية تعاونية عام ١٩٠٤ لتكون فيما بينها جمعية تعاونية للتجار بالجملة ، تقوم بتوريد السلع للجمعيات التعاونية المنضمة اليها .

وفي سويسرا : اتحاد يضم الجمعيات المنزلية ، ويقوم بنتاج بعض السلع الاستهلاكية ، كما ان بها اتصافا للزراع يقوم بخدمة الجمعيات التعاونية الزراعية .

وفي الاقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة : تتحد الجمعيات التعاونية لتساهم في ايجاد منشآت تعاونية عامة تقوم بخدمتها وخدمة اعضائها .

فى المجال الاستهلاكى تساهم الجمعيات التعاونية فى تكوين رأس مال الجمعية التعاونية للتجار بالجملة .

وفى ميدان التعاون الائتمالى ساهمت الجمعيات التعاونية فى إنشاء الجمعية التعاونية للبرول التى بلغ رأس مالها نحو مليونين من الجنيهات .

وفى مجال التمويل التعاونى ساهمت الجمعيات للتعاونية فى رأس مال بنك التسليف الزراعى والتعاونى الذى أصبح رأس ماله مشتركا بين الحكومة والجمعيات التعاونية .

وعندما قررت الثورة العربية تطبيق قانون الإصلاح الزراعى . اهتمت فى الوقت نفسه بالنص فى هذا القانون على اتحاد الزراعيين المنتفعين فى جمعيات تعاونية لتقوم بختمهم وخدمة اراضيهم ، وبذلك تتلاشى الأضرار التى يمكن أن يؤدى إليها تفتت الملكية .

وقد أدت التنظيمات الجديدة للحركة التعاونية فى مصر الى وضع نظم هرمى للحركة التعاونية ، تصطبغ كل درجة من درجاته ببدا الوحدة .

فالأفراد يتحدون فى جمعية القرية المحلية ، والجمعيات المحلية تتحد فيما بينها لتكون جمعيات مشتركة بالمرآكز ، وتتجمع الجمعيات المشتركة بدورها مكونة جمعيات مركزية بعواصم المحافظات ، وهذه تتحد أيضا لتكون جمعية عملة لمصر .

والوحدة مبدأ دعا اليه الاسلام ، وطبع به الكثير من أموره .

فالحج وصلاة العيدين وصلاة الجمعة وصلاة الجماعة . كلها تهدف الى جمع مجموعات من الناس وتوحيدهم على مستويات مختلفة لتأدية غرض مشترك يربطهم جميعا هو العبادة ، وهذا هو معنى الوحدة نفسه فى الحركة التعاونية (واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم الى قوله وليطوفوا بالبيت العتيق) .

وقد نزلت الدعوة الاسلامية على اقوام ظالمين عملت فيهم معاول النشئت وحب الذات ، فقسمتهم الى شيع واحزاب لاهم للقبيلة او للطائفة منهم الا البحث عن مصلحتها الشخصية فى اقلية تصرفها عن النظر الى مصالح غيرها ، هذا ان لم تنفعها الى تحطيم مصالح الغير .

فجاء الاسلام ليوحد بين كل هؤلاء : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم) .

وهكذا عرفهم الإسلام أن هناك أسلوبا للحياة أكثر نفعاً وفائدة لهم جميعاً ، ذلك هو أسلوب التعاون في ظل الوحدة .

ويتلقى الرسول الدعوة ليلفها قوية ، وليبنى بها مجتمعا جديدا يقوم على الحب والألفة .

(أن احبكم الى واقربكم منى مجلسا (١) يوم القيلة احلـسـكم اخلاقا .. المواطنون لكتفها الذين يالفون ويؤلفون) .

ويربط الرسول صلى الله عليه وسلم بربط قوى بين القرآن الكريم من جهة والرغبة في الوحدة والاتئاف من جهة أخرى : (اقروا القرآن ما انتلفت قلوبكم فذا اختلفتم فقوموا عنه) .

وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ الوحدة بنجاح بين أكبر مجموعتين ظهرتا في عهده ، وهما مجموعتا المهاجرين والأنصار : فعندما ضمهم يثرب جميعا بلخر الى تنفيذ أول مشروع إسلامي للوحدة ، وهو ما أطلق عليه (مشروع المؤاخاة) ، وعندما بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في تنفيذ مشروعه ، قل لأصحابه : (تأخوا في الله أخوين أخوين) ثم أخذ على بن أبى طالب وقال : (هذا أخى) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب أخوين .

كذلك صار حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى الرسول أخوين ، وتأخى أبو بكر الصديق مع خرجة بن زيد من الخزرج ، وأصبح كل واحد من المهاجرين متأخيا مع أحد الأنصار .

وكان كل أنصارى يمد أخاه المهاجر بما قد يحتاج اليه من ملأ أو غذاء أو كساء ، بل انهم كلوا يتوارثون هذا الإخاء اراثا مقدما على القرابة فإذا ملأ المهاجر ورثه أخوه الأنصارى ، وإذا ملأ أحد الأنصار ورثه أخوه المهاجر ! وظلت هذه القاعدة في الارث متبعة الى أن نعى الله عنها .

« ولولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

وهكذا حقق الرسول بهذه الوحدة فوائد عظيمة عادت على المسلمين ودينهم بالنفع والخير ، فقد واجهوا بوحدتهم هذه جيوشا أكثر عددا من جيوشهم ، وأكثر منها عدة فلتصروا عليها ، وكان من الممكن — بلا وحدة — أن تستغند طغفهم في مشاجنات وانقسامات دامية .

(١) وفي رواية : مجالس .

ثم ان الرسول بهذه الوحدة قد ازال الشعور بالفرقة عن المهاجرين الذين تركوا اهلهم وعشيرتهم وأموالهم سعيا وراء الاسلام .

وبعد ان استقر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، اتجه للقضاء على علل آخر من عوامل الفرقة والانقسام ، فجمع اليهود وكتب بينهم وبين المهاجرين والاتصار معاهدة (للامن المتبادل) تضمنت قواعد من الوحدة والاتلاف .

(المسلمون امة واحدة من دون الناس)

(وان المؤمنين بعضهم موالى بعض) .

(لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليتهم انفسهم) .

وفي اثناء مرضه صلى الله عليه وسلم اتجه الى المسلمين حثا اياهم على التمسك بالوحدة والاتلاف من بعده :

« الا انى لاحق بربى ، وانكم لاحقون بى ، فلو صيكم بالمهاجرين خيرا ، واوصي المهاجرين فيما بينهم ، واوصيكم بالاتصار خيرا ، فانهم الذين تبوعوا الدار والايمان من قبلكم .. ان تحسنوا اليهم ، لم يشطروكم في الفلأ ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على انفسهم وبهم الخصلة ؟ » .

وفي خطبة الوداع قال صلى الله عليه وسلم :

« ايها الناس ، ان ربيكم واحد ، وان ابلكم واحد ، كلكم ادم ، وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

وعندما حدثت المجاعة في العلم المسمى بعلم « الرمادة » تجلت عقدة الوحدة ، ومقدار استيعاب المسلمين للدروس التى لغتهم الرسول اياها في هذا المجال .

فقد توالى وصول المؤن الى المدينة من مختلف الامصار مساهمة منها في تخفيف اثر هذه الكارثة ، فكان ابو عبيدة اول من قدم على المدينة ومعه اربعة آلاف راحلة من الطعام قلم عمر بن الخطاب بالاشراف على تقسيمها على اهل المدينة ، ثم تتابع الناس بالمؤن .

وهكذا تضرب الدعوة الاسلامية اروع الامثلة في تطبيق مبدأ الوحدة .

خاتمة

رأينا في الفصول السابقة كيف أن الإسلام لم يتخط واحدا من مجلدات التعالون إلا كمن له مقرا وراعي ، واننا لنجد في ذلك دافعا الى اعادة النظر في تاريخ التعالون .

لقد انفرد علماء الغرب بوضع التاريخ المكتوب للتعالون ، ولكنهم كانوا خلال ذلك جاهلين او متجاهلين أن هناك في الشرق قد هبطت منذ قرون طويلة دعوة مساوية سلمية تأخذ من التعالون أساسا وتجعل من ميلاده منهلجا .

يقول مؤرخو الغرب : أن أول الدعاة للتعالون هما : الإنجليزي روبرت أوين (١٧٧١ م) ، والفرنسي فرانسوا فوريير (١٧٧٢ م) .

ولكن ذلك يدعونا الى التساؤل : أين كان هؤلاء الدعاة عندما حمل محمد صلى الله عليه وسلم دعوة التعالون الأولى ، تلك الدعوة التي انبثقت عن الدين الإسلامي قبل أكثر من ألف سنة من ميلاد هؤلاء الدعاة .

ثم يقول هؤلاء المؤرخون : أن لفظة (تعالون) لم تستعمل في إنجلترا إلا حوالي عام ١٨٠٠ م ثم أخذ الفرنسيون عن الإنجليز هذه الكلمة ، ثم انتشرت بعد ذلك في سائر أنحاء أوروبا ، وقد فلت هؤلاء أن هذا اللفظ بحروفه كان يجلب قبل ذلك بعشرة قرون ، مضيئا بمعناه ومضمونه أنحاء الجزيرة العربية ثم أنحاء المعمورة بعد ذلك .

ويقول هؤلاء المؤرخون : أن أول الجمعيات المنظمة قد أسست في كل من إنجلترا وفرنسا قرابة هذا التاريخ ، وأن كانت ألمانيا وروسيا أيضا تنقل عن هذا الشرف حيث يعلن بعض المؤلفين الروس أن التعالون شوهد في روسيا في عهد بطرس الأكبر عام ١٧٠٣ م .

وإنه لمن دواعي الفخر للدعوة الإسلامية أن تكون سببا في انشاء جمعيات تعالونية منظمة في بعض البلدان الإسلامية التي دخلتها قبل ذلك بمئات السنين ومن هذه البلاد تركيا والعراق .

وهذا ابن بطوطة الرحالة الإسلامي يصف لنا رحلته الأولى في نحو

سنة ١٢٠٥ م الى ١٢٤٩ م يتحدث عن هذه الجمعيات التعاونية التي كان لها دور كبير في رحلته الى تلك البلدان .

فيقول ابن بطوطة في رحلته عن بلاد الاندلس : انه اعجب بنظم جماعات الاخوان او الفتيان (وهي جماعات تضم الشبان غير المتزوجين ابناء الطائفة او القرية الواحدة ، فيقومون عليهم رئيسا لهم ، ويتخفون مقرا لجمعيتهم ويتمولون على البر واکرام الضيف القريب ، ويشتركون في الطعام والفناء والرقص ، وما الى ذلك ، ونظلمهم يتصل بنظم الفتوة في الاسلام ، كما ان فتيان مدينة قونية لهم في الفتوة سند يتصل الى على بن ابي طالب) .

وفي موضع آخر يقول ابن بطوطة انه :

ليس في الدنيا مثلهم اشد احتقالا بالغريباء من الناس ، واسرع الى اطعم الطعام ، وقضاء الحوائج ، والاخذ على ايدي الظلمة . وفي كل زاوية او قرية لهم زاوية فيها الفرش والسرير وما يحتاج اليه من الالات ويخرج الاصحاب بالليل في طلب معيشتهم ، ثم يأتون بعد العصر بما يجتمع لهم فيشربون به الفواكه والطعام فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد اتزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال كذلك حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فلكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالمد .

وهذا الكلام الذي ذكره ابن بطوطة يمكن ترجمته ترجمة امينة بلغة التعاون الحديث بانه كانت هناك جمعيات تعاونية استلهمت من الدعوة الاسلامية ، وسارت طبقا للقاعدة القرآنية (وتصلونوا على البر والتقوى) .

وان هذه الجمعيات كانت قروية تشمل ابناء القرية الواحدة ، او طائفية تشمل عددا من ابناء طائفة واحدة .

كما كانت هذه الجمعيات تعقد جمعيتها العمومية لانتخاب رئيس ادارتها من بين اعضائها ، وكان يسود اجتماعاتهم الديمقراطية الاشتراكية بجميع مشروعاتهم تأتي بالاتفاق كما ان اعمالهم تنقسم بالاشتراكية والمساواة .

وكان ل تلك الجمعيات مقر مؤتة ، وكان الاعضاء يعقدون اجتماعات يومية يتشاوروا في امورهم .

واموال هذه الجمعيات هي اموال اعضائها ، لما طريقة اتفاق هذه الاموال فلعلها اشبه بها في الجمعية الروتشدالية الاولى : ذلك ان هؤلاء ،

الاعضاء كانوا يتعاملون في شراء المواد الاستهلاكية اللازمة لهم بمسعر الجيلة ليستهلكوها فيما بينهم بطريقة تمولونية ، وبذلك كان يتحقق لهم نوعان من الوفر : النوع الاول هو الناتج عن شراء كبيت كبيرة بمسعر الجيلة .

والنوع الآخر من الوفر يقطن في ذلك الاقتصاد في الاستهلاك الذي يتحقق عند اشتراك أكثر من شخص في هذا الاستهلاك .

أما طريقة اتفاق هذا الوفر ، فلنا نلاحظ أن أعضاء هذه الجمعيات كان لديهم طريقان لاتفاق مليونفرونه :

أما الطريق الأول فيتمثل في إكرام الضيف ، وذلك اقرب ليكون الى المعونة الاجتماعية .

والطريق الآخر يتمثل في الناحية الترفيهية التي يحققها الاعضاء لأنفسهم من رقص وغناء وما الى ذلك .

ونعود مرة أخرى الى أقوال ابن بطوطة حيث يذكر انه صافى مثل هذه الجمعيات في مدينة ايطالية ، وكلفت تلك الجمعية تضم نحو ٢٠٠ الى عضويتها ، وكلهم من أهل الصناعات ، وكان العضو الذي أتتبه الجمعية في دعوته باسمها يعمل « أسكفيا » .

وفي مدينة لاذق استقبله ممثلو جمعيتين للفنجان وتحلها الى القرعة لضيفته ، وعند ما حل عليه عيد الفطر وهو في هذه المدينة شاهد أعضاء الجمعيتين وقد خرجوا في استعراض كبير حلهلين الاسلحة والاعلام التي ترمز الى طوائفهم .

وقد صافى ابن بطوطة أمثال هذه الجمعيات في مدن اسلامية كثيرة أخرى منها ميلاس وبرجين ، وقيسارية ، وسيواس .. الخ .

ويذكر ابن بطوطة انه لما قدم الى سيواس — خرج الى لقائه ممثلو جمعيتين فنزل عند من طلبه منها أولا ، وبعد ثلاثة أيام استسمح الأمير رئيس الجمعية في نزول ابن بطوطة بضيفته الا أن الآخر اعترض قتلًا له : (فليكونوا عندنا وضيفتك تسلم ، فوافق الأمير) .

وهذا يلفتنا على أن تلك الجمعيات كلفت لها شخصية معترف بها حتى من الجهات الرسمية ، وأن كلمتها كان لها اعتبار كبير .

كل هذا يثبت لنا بالدليل القاطع أن (التمولون سواء من ناحيته المعنوية والروحية ، أو من ناحيته التنظيمية ، قد بدأ في الشرق بوحى من الدعوة الاسلامية) .

المقدمة

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
تمهيد	
التعالمون تعريفه — تاريخه	
اهدائه — بجلته	٥
الفصل الأول :	
باب العضوية المفتوح	١٧
الفصل الثاني :	
نشر العام	٢٥
الفصل الثالث :	
الديموقراطية في الادارة	٣٥
الفصل الرابع :	
المدالة	٤٧
الفصل الخامس :	
العائد	٥٥

الفصل السادس :

البيع بالتقسيط ٦٥

الفصل السابع :

الاقتصاد ٧١

الفصل الثامن :

الملائية ٧٦

الفصل التاسع :

الحرية ٨٦

الفصل العاشر :

الوحدة ٩٧

الخلاصة ١٠٠

الدار القومية للطباعة والنشر

نبذة عن المؤلف :



الأستاذ مراد محمد علي حائر
على بكالوريوس التجارة من جامعة
مين شمس عام ١٩٥٣ وهو يعمل
مديراً لبنك القرية في سبراي
وقد تخصص في شؤون التعاون
الريفى ، ونشر العديد الإبحاث عن
التعاون في الصحف والمجلات .

ههرا الكتاب :

سال أحد الفلاحين المؤلف في احدى محاضراته : لماذا
نضربون دائما المثل بالتعاون في الخارج ، أليس في الاسلام
تعاون ؟ .. وقد حفز هذا السؤال المؤلف على اعداد كتابه هذا
الذى يبين فيه أن التعاون قد بدأ في الشرق بوحي من الدعوة
الإسلامية . ثم يستطرد فيحدث عن أهداف التعاون ومبادئه
وآثاره في التكافل الإجتماعى الذى يقوم عليه المجتمع
الاشتراكى التعاونى .